أمين محمد عثمان

تراثنا العربي

في ضوء العلم الحديث

منشورات مكتبة الشرق
طرابلس الغرب - ليبيا

أمين محمد عثمان

تراثنا العربي

في ضوء العلم الحديث

منشورات مكتبة الشرق
طرابلس الغرب - ليبيا
ص. ب : ٢٥٥

مُقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فهذه فصول علمية ، أقدمها لقراء العربية ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم ، بأن في التراث العربي العريق، كنوزاً نفيسة ، وأحجاراً كريمة ، لكنها في حاجة الى من ينقب عنها ويخرجها من كهوف النسيان الى عالم النور والعرفان .

وهذا اللون من البحث قد امتزج فيه (علم النفس) بالأدب، وارتبط فيه القديم بالجديد ، واتصل الماضي بالحاضر ، وشرحت فيه النظريات العلمية العويصة ، بأساليب سهلة ميسرة، في متناول القارىء العادي .

وسوف يجد القراء في هذه الجولة القصيرة من الكتاب ، ان آباءهم العرب ، قد أسهموا بنصيب كبير ، في بناء صرح المدنية الحاضرة ، وانهم كانوا أساتذة العالم، في حقب طويلة من التاريخ .

وقد رأيت ، ان ألحق بهذه الفصول ، بحثا عن (القرآن والعلم الحديث) لأن القرآن — كما نؤمن بذلك — معين لا ينضب من الحقائق العلميـــة ، والنظريات الكونية ، وانه صالح لكل زمـان ومكان ، وبذلك نضيف معجزة اخرى ، الى معجزات القرآن الخالدة .

والله نسأل ان يوفقنا لنفع العرب والعروبـة ، وان يهدينا الى سواء السبيل .

المؤلف

طرابلس الغرب { ربيع الأول عام (١٣٧٧) هـ
اكتوبر عـام (١٩٥٧) م }

كُلُّ ذِي عَاهَةٍ جَبَّارٌ

« مثل عربي »

« ما تَزَيَّد مُتَزَيِّدٌ في أَمْرِهِ إلَّا لِنَقْصٍ
يَجِدُهُ في نَفْسِهِ »

« معاوية بن أبي سفيان »

مركب النقص وأثره في الحياة

COMPENSATION

كان الشاعر الضرير « بشار بن برد » آية في الحس ، ونادرة في الذكاء ، وكان في تشبيهاته الشعرية ، أعلى قدماً ، واشد إصابة من كثير من المبصرين ولا يزال النقـــاد والأدباء يعجبون من قوله :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وذكر صاحب الأغاني : ان رجلاً اتى بشاراً فقال : « يا أبا معاذ ، دلني على بيت فلان » ، فأخذ بشار يصف له البيت ، والرجل لا يفهم ، فأمسك بشار بيده ، وسار به بين المنحنيات والمنعطفات ، حتى أوقفه على باب الدار ثم قال : « هذا هو البيت يا أعمى » ، وأنشد :

أعمى يقود بصيراً (لا أبا لكم)
قد ضل من كانت العميان تهديه

(١) نشرت بجريدة الأهرام عام ١٩٥٢ تحت عنوان (كل ذي عاهة جبار)

وكان (ديموستين) ، الخطيب اليوناني المشهور،به (لكنة) في لسانه ، فعمل على تقويمه حتى صار أخطب الخطباء في عصره ، وقد ألف (بتهوفن) الموسيقار المعروف ، أعذب ألحانه بعدان اصيب بوقر في سمعه

فما أثر هذه الظاهرة في اصحاب العاهات وما مظاهرها ؟

ان التعليل النفسي لهذه الظاهرة ، هو ما يعرف عند علماء التحليل النفسي (بالتعويض) او (مركب النقص) .

وهو الظهور بصفة ما ، بقصد تغطية صفة اخرى ، والصفة الظاهرة في العادة ، صفة طيبة مقبولة عند الشخص ، واما الصفة المستترة فإنها صفة غير مقبولة .

إنك لترى الرجل الوضيع ، يحاول ان يستر ذلك بالتفاخر والتعاظم ، وقصير القامة ، يطيل طربوشه ، او كعب حذائه ؛ وقد تخاطب « نادل القهوة» او عامل المصعد، او حاجب المنزل، فيشمخ هذا عليك بأنفه، او يصعر لك خده ، أو يثني لك عطفه .

وعلى عكس من هذا ، تدخل على الرجل العظيم ، فيجيبك في تواضع ، ويكلمك في بساطة ، ويتنازل لك عن مقعده إذا امكن .

تراه إذا مـا جئته متهللا   كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ولقد علمت انه لم تنجب بلاد الإغريق، في تاريخها العريق، أعلم ولا احكم من الفيلسوف العظيم « سقراط » ؛ لقد رزق الحلم والأناة ، وآتاه الله الحكمة (ومن يؤت الحكمة ، فقد أوتي خيراً كثيراً) .

ومع هذا كله ، فقد كان متواضعاً جم التواضع ، سئل مرة : هل أنت حكيم ؟

قال : لست حكيماً ولكني محب للحكمة ، وسئل : هل انت عالم ؟ قال : لا ، لقد علمت شيئاً واحداً وهو اني لا اعلم شيئاً .

(وموسى) كليم الله ورسوله ، لم يجد في نفسه غضاضة ان يسعى هو وفتاه الى (العبد الصالح) ثم يقول له مستعطفاً : « هل أتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا » ؟

اجل فان العلم لا يتناهى ، ولا يمكن ان يتناهى ، وهو اكثر من ان يحيط به بشر (وفوق كل ذي علم عليم). والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها اينما وجدها ، ومن اجل هذا ، ترى القرآن يكرر هذا المعنى في كثير من آياته فيقول (وما اوتيتم من العلم الا قليلاً ، وقل رب زدني علماً) .

***

وقد تخرج السيدة بكامل زينتها ، ووراءها الخادم تحمل لها الحقيبة ، او تراها تأمر (الخادم) وتنهاها ، او تغلظ لها القول امام الضيوف .

***

إن كثيراً من الناس يشعرون بنقص في نفوسهم اواجسامهم ، فيحاولون ان يستروا هذا النقص بحيل دفاعية ، تبديها النفس للدفاع عن كيانها ؛ فاصحاب العاهات ، وأرباب العيوب الجسمية والخلقية ، يشعرون بنقص في حياتهم الاجتماعية ، فقد يكون

هذا النقص مدعاة للشفقة، أو مثاراً للرثاء او دافعاً للسخرية، فيحاولون أن يستروا نقصهم هذا باصطناع صفة او مظهر سلوكي على النقيض مما لديهم من صفات.

ذكر صاحب «العقــد الفريد» ان (الأحنف بن قيس) و (محمد بن الأشعث) وقفا بباب أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان فأذن للأحنف أولاً، ولمحمد بن الاشعث ثانياً، ولكن محمدا أسرع في مشيته، حتى دخل قبل الأحنف، فلما رآه معاوية، نظر اليه مستنكراً، ثم قال له: «والله اني ما أذنت له قبلك، وأنا اريد ان تدخل انت قبله، وإنا كما نلي أموركم، نلي كذلك اصلاح أدبكم، وما تزيد متزيد في امره الا لنقص يجــده في نفسه».

***

والتعويض أو (مركب النقص) ليس ضاراً كله، فإنه من الحوافز الفطرية القوية لدى الانسان، يدفعه الى الغلبة، وقهر الطبيعة المنافسة له، فشعور الانسان بالنقص، دفعه دفعاً الى ان يقهر العالم المادي بالعلم والصناعة، وأن يقهر العــالم الاجتماعي بالقوة؛ وليس التاريخ السياسي الا محاولات للسيادة لإشباع ذلك الحافز الكائن في قلب كل انسان وفي قلب كل أمة.

والتعويض أنواع:

١ — **التعويض الموفق**: وهو أن يواجه الانسان النقص فيتغلب عليه، وقد يفوق ذلك، سائر الاشخاص الأسوياء، وقد مر بك من ذلك حال بشار بن برد، وديموستين خطيب اليونان، وبتهوفن.

ولعلك علمت شيئاً عن هذه السيدة الأمريكية الصماء (هيلين كلر) ، وكيف ان هاتين العاهتين لم تمنعاها من التعلم والتفوق الى درجة بذت فيها اقرانها الموهوبين .

٢ ـ التعويض العدواني :

فإن المرء إن لم يكن في قدرته ان يتغلب على نقصه بإنماء ما لديه من استعدادات ، وان لم يكن فيلسوفاً فيقبل العيب على علاته ، فهو اما ان يحاول ذر الرماد في العيون ، إخفاء لعيبه ، كالذي يكثر الحديث عن نفسه ، والتفاخر بميزاته ومواهبه المزعومة . والولع بذكر اسمه في الجرائد ، وتعليق صورته على الحائط ، وطبع ألقابه العلمية على البطاقات .

ولعلك تعجب اذا علمت ان «المتنبي» شاعر العربية المعروف ، كان مصاباً بهذا اللون من مركب النقص ، مع عبقريته ونبوغه ، واعجاب المتقدمين والمتأخرين بشعره ، حتى قال فيه (ابن رشيق صاحب العمدة) : ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا ، وشغل الناس ..

لقد كان يشعر في قرارة نفسه ، ويحس من أعماق قلبه ، انه من اسرة وضيعة فقيرة ، وأبوه (عبدان السقاء) كان يسقي الناس من قربة على ظهره بمدينة « الكوفة » حتى عيره بذلك بعض الشعراء فقال :

أي فضل لشاعر يطلب الفضـ ... ل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع بالكوفة الما ء وحيناً يبيع ماء المحيا

فحاول المتنبي ان يغطي هذا النقص في حياته الاجتماعية ، فادعى النبوة في مبدأ حياته ـ على ما يقال ـ (أولا) ، وترفع عن مدح

غير الملوك (ثانياً) واستعمل أسلوب التفاخر في شعره (ثالثاً)

استمع اليه في رثاء جدته :

ولو لم تكوني بنت اكرم والد   لكان اباك الضخم كونك لي أما
واني لمن قوم كأن نفوسهم   بها أنف أن تسكن اللحم والعظما
لئن لذ يوم الشامتين بيومها   فقد ولدت مني لآنفهم رغما
تغرب لا مستعظماً غير نفسه   ولا راضياً إلا لخالقه حكما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني   ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

واستمع اليه ايضاً يقول :

إن اكن معجباً فعجب عجيب   لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافي   وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الله   غريباً كصالح في ثمود

ولما اتصل المتنبي بسيف الدولة شرط ألا ينشده الشعر إلا وهو جالس ، ولا يكلف بتقبيل الارض عند الدخول عليه ، فدخل سيف الدولة تحت هذه الشروط ، واتهم الناس المتنبي بالجنون .

ولقد كان لسلوك المتنبي هذا ، اثر كبير في إيغار الصدور عليه ، وتأليب الأدباء والكتاب على ذمه والنيل منه .

ذكروا ان ابا فراس الحمداني ، قال لسيف الدولة : ان هذا المتسمى كثير الدلال عليك ، وانت تعطيه كل سنة ثلاثة الاف دينار ، على ثلاث قصائد ، ويمكن ان تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً ، يأتون بما هو خير منه ، وليس ابو فراس واحداً في مهاجمة ابي الطيب من هذه الناحية ، بل كل حساده قد هاجموه منها ، ووصموه بوصمة الكبر ، والجنون بالعظمة .

ولعلك تزداد تعجباً حينما ترى المتنبي يقف امام ممدوحه «سيف الدولة» في مجلس ضم كثيراً من الأدباء والشعراء ، وكبار الدولة ، فينشده :

سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا بأنني خير من تسعى بـه قدم
انا الذي نظر الأعمى الى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

***

يا من يعز علينا ان نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم
شر البلاد بلاد لا صديق بهـا وشر مايغضب الانسان مايصم
اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا الا تفارقهم فالراحلون هم

***

وإما ان ترى الشخص يتجنى على الناس ، فيبخسهم أعمالهم ، أو يتسقط لهم الهفوات ، او يكثر من السخرية بهم ، فان لم تكن لهم عيوب ومثالب ، اختلق لهم منها اشكالا والواناً .

وبهذا كان الشاعر (الحطيئة) هجاء مقذعا ، يهاب الناس لسانه ، ويتحاشون قوله ، لأنه لم يستطع ان يتغلب على نقصه ، بتعويض موفق ، لقد كان مطعونا في نسبه ، ومات ابوه .. وهو لم يعترف به ، فنشأ الحطيئة مغموراً ، حاقداً على امه وابيه ، متبرماً بالناس واتخذ من شتم الناس وهجائهم تعويضاً عن نقصه هذا .

ذكر صاحب الأغاني : انه لما كثرت شكاوى الناس من هجاء الحطيئة ، امر بـه الخليفة « عمر بن الخطاب » فأودع في السجن ، وهم بقطع لسانه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد اصبح

الهجاء قطعة مني ولا استطيع عنه صبرا ، لقد هجوت امي وابي، وهجوت زوجتي ، ثم هجوت نفسي ، فقال عمر : وكيف هجوت امك ، ويلك ؟ قال : قلت فيها يا امير المؤمنين :

جزاك الله شراً من عجوز — ولقاك العقوق من البنينا
تنحي فاجلسي عني بعيدا — اراح الله منك العالمينا
اغربالاً إذا استودعت سراً — وكانوناً على المتحدثينا
حياتك، ماعلمت، حياة سوء — وموتك قد يسر الصالحينا

فقال عمر : عجباً ، وما ذا قلت في ابيك ؟ قال : قلت فيه يا امير المؤمنين :

لحاك الله ثم لحاك حقـاً — اباً ولحاك من عم وخـال

وقلت في زوجتي :

اطوّف ماطوّف ثم آوي — إلى بيت قعيدته لكاع

وهممت بالهجاء فلم اجد احـداً اهجوه ، فنظرت الى وجهي في المرآة ، ورأيت قبح صورتي فقلت :

ابت شفتاي اليوم الا تكلّما — بهجو ولا ادري لمن انا قائله
ارى ليَ وجهاً قبح الله خلقه — فقبح من وجه وقبح حامله

فتبسم عمر بن الخطـاب ، واشترى منه اعراض المسلمين — كما يقال — بثلاثين الف درهم .

٣ — والتعويض العزائي: وهو ان يشعر المرء بنقص فيرتد الى نفسه يتطلب من خياله وبدوانه في احلام اليقظة ، قوة حرمته منها الحقيقة المرة .

ذكر (بيدبا) الفيلسوف ، في كتابه (كليلة ودمنة) :

ان ناسكاً كان يجري عليه ، من بيت رجل تاجر ، في كل يوم ، رزق من السمن والعسل ، وكان يأكل منه قوته وحاجته ، ويرفع الباقي ويجعله في جرة ، فيعلقها في وتد ، في ناحية من البيت حتى امتلأت .

فبينما الناسك ذات يوم مستلق على ظهره ، والعكازة في يده ، والجرة معلقة على رأسه ، تفكر في غلاء السمن والعسل ، فقال : سأبيع ما في هـــذه الجرة بدينار ، وأشتري به عشرة أعنز ، فيحبلن ويلدن في كل خمسة اشهر بطنا ، ولا تلبث الا قليـلا حتى تصير غنماً كثيرة ، إذا ولدت اولادها ، ثم اجرى حساباً على هذا النحو بسنين ، فوجد ذلك اكثر من اربعمائة عنز ، فقال : أنا اشتري بها مائة من البقر ، بكل اربعة اعنز ثوراً او بقرة ، واشتري ارضاً وبذرا ، واستأجر عمالاً ، وأزرع على الثيران ، وأنتفع بألبان الإناث ونتاجها ، فلا يأتي علي خمس سنين إلا وقد اصبت من الزرع مالاً كثيرا ، فابني بيتاً فاخرا ، واشتري اماء وعبيدا ، واتزوج امرأة جميلة ذات حسن ، ثم تأتي بغلام سري نجيب ، فأختار له احسن الأسماء ، فاذا ترعرع ادبته ، واحسنت تأديبه ، واشدد عليه في ذلك فان يقبل مني ، والا ضربته بهـذه العكازة ، واشار بيده الى الجرة فكسرها ، وسال ما كان فيها على وجهه .

* * *

وقد يعمد بعضهم الى الخمر (ارهف الأسلحة ، واشدهـــا فتكاً بالنفوس) او الى المخدرات يتعزى بها عما يكابده من نقص ،

وما يعانيه من الوان الصراع في المجتمع ، ويدفن فيها احزانه ولو الى حين، ولكن ذلك مسكن وقتي، فسرعان مايفيق فتفاجئه الحقيقة المرة، فيرتد الى الخمر من جديد ، فراراً من شبح الواقع البغيض . ولعلك تدرك ما كان يعتلج في نفس أبي نواس ، وما كان يكابده من نقص حينما يقول فيغالط بقوله هذا قانون الأخلاق، ومبادىء المثل العليا :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر
فعيش الفتى في سكرة بعد سكرة فإن طال هذا عنده قصر الدهر

وحسبك ان حكماء العرب سموا الخمر (بأم الخبائث) وقالوا : إن الشر كله في بيت مفتاحه الخمر .

رَمتْنَا بِدَائِها وانسَلّت .

« مثل عربي »

إذَا سَاءَ فِعْلُ المرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُه
وصَـــدّقَ ما يَعْتَادُه مِن تَوَهُّمِ

وَعَـــادَى مُحِبِّيهِ بِقَولِ عِداتِه
وأصْبَح في ليْـلٍ مِنَ الشَّكِ مُظْلِمِ

« ابو الطيب المتنبي »

الاسقاط النفسي

PROJECTION

ذكر الثعالبي في كتابه (ثمار القلوب) ان رجلاً من العرب يسمى (عجل بن لجيم) كنت لا تراه إلا منطوياً على نفسه ، هادئاً في ظاهره ، لكنه مرجل يغلي في باطنه، لا يحب ان يتصل بالناس ، ولا يحب للناس ان يتصلوا به ، لقد كانت دائرة أفقه ضيقة محدودة ، فهو لا ينظر الى المجتمع من خلال برجه العاجي إلا من فجوة ضيقة لا تكاد توسل النور ، وإنك لتعلم أن الانطواء على النفس كثيراً ما تعتري صاحبه الغفلة والحمق في أبسط المشاكل التي تعرض له .

كان يملك فرساً كريماً،ود جميع الناس، لو يملكونه بأموالهم وما ملكت أيديهم ، فأتاه أحد ابنائه يوماً وقال: يا أبت، لقد اعتادت العرب ان تسمي الخيول الكريمة ، بأسماء عظيمة ، فماذا تسمي فرسنا هذا ؟ سؤال مفاجيء (بالنسبة إليه) أوقعه

١ ـ نشرت بجريدة الاهرام في ٢٣ يوليه عام (١٩٥٢) تحت عنوان (رمتني بدائها وانسلت) .

في حيرة ، فعمد إلى مدية مشحوذة ، أغمدهـــا في عين الفرس ، وقال: (سميته الأعور) فضربت العرب به المثل في الحماقة ، فقالوا : (فلان أحمق من عجل بن لجيم) .

ومع هذا كله فقد كان هو يتهم الناس بالحماقـــة ، وينعتهم بالغفلة ، ويصفهم بالتردد ، قال الشاعر يهجوه :

رمتني (بنو عجـــل) بداء أبيهم
وهل أحد في الناس احمق من عجل ؟
أليس أبوهم عـــار عـــين جواده
فأضحت بـه الأمثال تضرب في الجهل

* * *

فما مظهر هذا التناقض وما علته ؟ إن المثل العربي يقول (رمتنا بدائهـــا وانسلت) وهو مثل عربي ، أساسه النفسي (الخلع أو الإسقاط) Projection .

ويتلخص في ان يخلع الانسان ما بـــه من عيوب ، أو نواحٍ الضعف ، وما لا يود ان يعترف به ، على الناس ، او الظروف ؛ فقد ينسب المرء الى صديقـــه الجحود او الكذب او التكلف ، على حين انه هو الجاحد او الكاذب او المتكلف ، أو يتهم غيره بأنه ثرثار كثير النقد ، في حين أنه هو المصاب بهاتين الصفتين ، والبخيل اكثر الناس اتهاماً للناس بالبخل ، والمتهم في خلقه كثيراً ما يتهم زوجته البريئة بسوء الخلق .

ونحن في حياتنا اليومية ، كثيراً ما نعمد الى هذه الوسيلة ، فننسب السقوط في الامتحان الى صعوبته ، والتأخر في الحضور

الى المطر ، والزلل في السير الى الحذاء ، والفشل في المشروعات الى الحظ .

ان مثل عملية الاسقاط هـــذه ، كمثل الفانوس السحري ، الذي يسقط الصورة على (ستارة) أو حاجز نصب في الخارج ، والصورة لا تنتمي الى الحاجز الذي أسقطت عليه ، وانما تنتمي الى(الفانوس السحري)؛ فالإسقاط إذن هو تفسير أعمال الغير ، بحسب ما يجري في نفوسنا نحن ، وقد قالت العرب : (لا يصف الرغيف إلا جائع) .

ومر عيسى عليه السلام ، بجماعـــة من اليهود ، فكان كلما أسمعوه شراً ، أسمعهم خيراً ، فقال (الحواريون) : ما هـذا يا نبي الله ؟ يسمعونك شراً وتسمعهم خيراً ؟

قال : (نعم ، كل إناء بما فيه ينضح) .

وقال الحكماء : (إذا أردت أن ترى العيوب جمة ، فتأمل عيَّاباً ، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب) .

* * *

إن الشاب الذي يظل مرتدياً ثياب العفة حتى يتزوج ،والذي يحوط نفسه بسياج من الفضيلة ، يتنبأ له علماء النفس المحدثون ، بحياة زوجية هانئة ، تنساب في يسر وسهولة ، كما ينساب اللحن الجميل في الأذن الواعية ، أو كما ينساب الكرى في الأعين الغافية .

وعلى عكس من هذا ترى الشاب الفاسق ، كثيراً ما يخلع على زوجته البريئة ، ما فيه من نقائص ، وما به من عيوب ، وصدق الشاعر المتنبي إذ يقول :

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه   وصدّق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته   وأصبح في ليل من الشك مظلم

ولقد كان (ابو العتاهية) شاعر الزهد المعروف ، حريصاً على جمع المال ، شحيحاً حتى في الانفاق على نفسه ، لئيمـــاً كنزا ، يكنز الدرهم والدينار ويحتفظ بالدانق والسحتوت ، ومع هـــذا كله ، كان يدعو الى ذم الدنيا ، وينهى عن البخـل والحرص ، وكثيراً ما كان يتهم الناس بأنهم اشحاء ، حراص على المال ... استمع اليه يهجو صديقه (سلم الخاسر) :

تعالى الله يا سلم بن عمرو   أذلّ الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تساق اليـــك عفواً
أليس مصير ذلـك الزوال ؟

ولعلك تدهش ، ويأخذ بك العجب كل مأخذ إذا علمت ان ابا العتاهية هو صاحب هذه الأرجوزة الشعرية في الزهد :

حسبك مما تبتغيـــه القوتُ   ما اكثر القوتَ لمـن يموتُ
الفقر فيما جاوز الكفـــافا   من اتقى الله رضي وخـافا
هي المقـــادير فلمني أو فذر   إن كنت اخطأت فما أخطا القدر

* * *

لكل ما يؤذي (وإن قلّ) ألم   ما اطول الليل على من لم ينم
إن الشباب والفراغ والجده   مفســـدة للمرء أي مفسده
وأسعد العـــالم عنـــد الله   من ساعد النـاس بفضل الجاه
ومن أغاث البـــائس الملهوفا   اغـــاثه الله اذا أخيفا

واستمع ايضاً الى قوله :

لا تأمن الموت في لحظ ولا نَـفَس ... وان تمنّعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة ... لكل مدّرع منهـا ومُتـّرس
ترجو النجاة ولا تسلك مسالكها ... (ان السفينة لا تجري على اليبس)

ثم تدبر بعد هذا كله ما ذكره ابو الفرج الاصفهاني ، في كتابه (الأغاني) :

قال ، قال (ثمامة بن اشرس) أنشدني ابو العتاهية :

اذا المرء لم يعتق من المال نفسه ... تملكه المال الذي هو مالكه
الا إنما مالي الذي أنا منفق ... وليس لي المال الذي انا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذي ... يحق والا استهلكته مهالكه

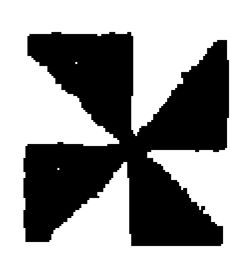
فقلت له : من اين قضيت بهذا ؟ فقال : من قول رسول الله (ﷺ) :

« يقول ابن آدم : مالي ، مالي ، إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، او لبست فأبليت ، او تصدقت فأمضيت » ، فقلت له : او تؤمن بأن هذا قول رسول الله ، وانه الحق ؟ قال : نعم ، قلت : فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة من الدنانير ، ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكي ولا تقدمها ذخراً ليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال : يا أبا معن ، والله إن ما قلت لهو الحق ، ولكني اخاف الفقر والحاجة الى الناس ، فقلت : وبم تزيد من افتقر على حالك ، وانت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح على نفسك ، لا تشتري اللحم إلا من عيد الى عيد ؟ فترك جواب كلامي كله ثم قال لي : والله لقد اشتريت في يوم (عاشوراء) لحماً وتوابله ، وما يتبعه بخمسة دراهم ؛ فلما قال لي هذا القول ، اضحكني حتى اذهلني عن

جوابه ومعاتبته ، فأمسكت عنه ، وعلمت انه ليس ممن شرح الله صدره للاسلام .

ولقد صدق (ثمامة بن أشرس) في وصفه لأبي العتاهية ،فإنه :

اذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساء !



لِكلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعوَّدَا .

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الهوانُ عَلَيْهِ

مَا لجُرحٍ بميِّتٍ إيلَامُ ،

يُرادُ مِنَ القَلْبِ نِسْيانُكُم

وَتأبَى الطِّباعُ علَى النَّاقِلِ

(المتنبي)

العاطفة السائدة

MASTER SENTIMENT

الانسان في حياته ، تتنازعه كثير من العواطف ، تتنازعه عاطفة نحو الأبناء ، وعاطفة نحو المال ، وعاطفة نحو الوطن ، ونحو الدين ، والعلم ، وهكذا .

وقد تتربع عاطفة واحدة على عرش العواطف كلها ، فتكون لها السيطرة التامـــة على أفعال المرء وتصرفاته ، وتقوم جميع العواطف التي للانسان بخدمة هذه العاطفة السائدة .

فلو انك تصورت شخصاً يحب المال حباً جماً ، ولا يشغله عن ذلك أمر آخر ، فإن هذا الشخص يصادق من يساعدونه على ذلك ويكره من عداهم ، وتتملكه سورة الغضب اذا تأخر مدينوه في دفع ما عليهم ، وقد لا يغضب لكرامته في المواقف التي يغضب الناس فيها عادة لكرامتهم ، ولا يغار على شرفه في المواقف التي يغار الناس فيها على شرفهم ، وقد عبّر الشاعر (المتنبي) عن هذا المعنى أبلغ تعبير حينما يقول :

---

١ ــ نشرت بمجلة الاخبار عام (١٩٥٤).

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميّت إيلام

* * *

ذكر الجاحظ في كتابه (البخلاء) أن علي بن الجهم ، كان من رؤساء أهل البخل ، وهو الذي قال : وددت لو ان عشرة من الشعراء ، وعشرة من الأدباء ، وعشرة من الخطباء، وعشرة من الفقهاء ، قد أجمعوا على ذمي ، واذاعوا بين الناس بخلي ،حتى ينشر ذلك عنهم في الآفاق ، فلا يمتد الي أمل آمل ولا ينبسط نحوي رجاء راج .

وفي كتاب (البخلاء) ترى الجاحظ يروي لك طرفاً من اخبار هؤلاء البخلاء ،ويصور لك مايختلج في نفوسهم من المشاعر وما يدور في عقولهم من الأفكار والآراء ، ويذكر لك شيئاً من فلسفتهم ونظرتهم الى الحياة ؛ فهذا (مروان بن ابي حفصة) ينزل عليه ضيف بالليل ، فيترك له المنزل، ويبيت خارجه ، مخافة ان يلزمه قراه ، ثم يخرج الضيف فيشتري ما يلزمه ثم يرجع ، ويكتب الى صاحب المنزل :

يا أيها الخارج من بيته   وهارباً من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له   فارجع تكن ضيفاً على الضيف

وقد تحاول جهد استطاعتك ، ان تثني البخيل عن عزمه ، وتسرد امامه الحجة بعد الحجة وتظهر له الدليل اثر الدليل ولكن عبثاً تحاول :

فلو نار نفخت بها أضاءت   ولكن انت تنفخ في رماد
لقد أسمعت لو ناديت حياً   ولكن لا حياة لمن تنادي

* * *

وقد تكون العاطفة السائدة هي (عاطفة حب الذات) فتجد جهود المرء موجهة كلها نحو ذاته لتعظيمها وارضائها ، فهو يحب من يتحدثون عنه بالمدح ويعطف عليهم ويكرمهم ، ويكثر من التشدق بالحديث عن نفسه ، وتشتاق نفسه دائماً لأن يكون هو مركز الانتباه والاعجاب ، وقد يكون مغرماً بالتأنق ، واطالة النظر في المرآة ، او في صورة نفسه ، التي يملأ بها أركان منزله ، وقد يكون مغرماً برؤية امضائه ، أو اسمه على الورق أو صورته في جريدة او كتاب .

وقد كان البحتري ، الشاعر العباسي المعروف ، من هذا النوع ، وتروي كتب الأدب ، انه كان اذا انشد شيئاً من شعره قال للمستمعين: «احسنت انا والله ، لم لا تقولون لي احسنت ؟ »

ولو بدا لك مرة اخرى ان تستعرض شعر «المتنبي» لرأيت انه ممن كانت تسيطر عليهم هـــذه العاطفة ؛ أليس المتنبي هو الذي يقول :

وما الدهر الا من رواة قصائدي
اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمّراً وغنى به من لا يغني مغردا...

ثم تراه ايضاً يقول :

ما نال اهل الجاهليـــة كلهم شعري ولا سمعت لسحري بابل
واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامـــل

وما كاد المتنبي يشب عن الطوق ، ويجتاز مرحلة المراهقة ، حتى يفصح عن هذه العاطفة في شعره فيقول :

أي محـــل أرتقي   أي عظـــيم اتقي
وكل ما خلق الـــه ومـــا لم يخلق
محتقَر في همتي   كشعرة في مفرقي

ويقول ايضاً :

ما مقامي بأرض نخـــلة الا   كمقام المسيح بين اليهود
انا ترب الندى ورب القوافي   وسمام العـدى وغيظ الحسود
انا في امة – تداركها الـــه – غريب كصالح في ثمود

وقد تكون العاطفة السائدة ، عاطفـة محبوبة ، تتمركز في طلب العلم ، او نصرة الانسانية ، او خدمة المجتمع ، وقـــد يجد المرء في ذلك ، متعة كبرى ولذة عظمى ، دونها سائر المتع ، وأمتع اللذات ؛ وهذا هو السر ، في ذلك الاصرار العجيب ، الذي يتمسك به الانبياء ، وقادة المجتمع ، واصحاب المبادىء والمثل العليا ، رغما يكابدونه من ضروب الحرمان والاضطهاد ، ومعاداة الناس ، وظلم ذوي القربى .

وظلم ذوي القربى اشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند

ذكرت كتب السير : ان أبا طالب عم النبي « ﷺ » حينما انذرته قريش ، وهددته باعلان الحرب ، أقبل على ابن اخيه (محمد) وطلب منه ان يخفف من امر دعوته قليلا ، إبقاء على علاقته الودية بقريش ، فقال له النبي كلمته الحازمة : « والله يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على ان اترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو اهلك فيه » .

وفي رأيي : ان ما يرويه الناس عن ذلك « الحب الالهي »

المعروف ، وما يقول به المتصوفة ، من فناء المحب فيمن يحب ، صحيح الى حد ما ، ومصدره - كما علمت - تلك العاطفة السائدة ، التي حدثناك عنها آنفاً .

فما يقال عن « ابن الفارض » والحلاج ، ومحيي الدين بن العربي ، وغيرهم ، قد يكون له نصيب من الصحة ، لولا ما يحاك حولهم من التهاويل والاساطير التي لا تدخل في حيز الإمكان .

ولا يكون مثل هذا الحب ، حباً في عرف المتصوفين ، إلا اذا كان خالصاً لله ، منزهاً عن الاغراض ، بعيداً عن دائرة الجزاء ، فهذه (رابعة العدوية) تتجرد من كل شيء إلا من محبة الله (عز وجل) فتقول : « إلهي ! ما عبدتك طمعاً في جنتك ، ولا خوفاً من نارك ، ولكن عرفتك اهلاً للعبادة فعبدتك » .

ثم تنشد :

كلهم يعبدون من خوف نار ... ويرون النجاة حظاً جزيلا

أو بأن يسكنوا الجنان فيحظوا ... بقصور ويشربوا سلسبيلا

ليس لي في الجنان والنار حظ ... انا لا ارتضي بحبي بديلا

* * *

ويستطيع القارىء ايضاً ، ان يحكم بصحة ما ترويه كتب الأدب ، عن الحب « الافلاطوني » او ما نسميه نحن « بالحب العذري » ، ولئن كان الدافع الى هذا الحب ، انما هو دافع جنسي خفي على رأي (فرويد) غير انه يعلو بصاحبه عن مستوى اللذات الحسية ، ويتسامى بصاحبه عن نداء الشهوة الجنسية .

(والعفة المطلقة) شرط أساسي لهذا اللون من الحب ، وفي

ذلك يروون عن « ابن عباس » أن رسول الله قال: (من عشق فعف فمات ، دخل الجنة) وفي رواية أخرى (مات شهيداً) .

على أن كثيراً من الناس ، لا يؤمنون بهذا الحب ، ولا يصدقون ما يحاك حول أربابه من القصص ، ويعتبرون ذلك ضرباً من الأساطير ، ولا يتصورون — أبداً — أن يموت إنسان من العشق ، أو يخلو رجل بامرأة، ثم لا يكون بينهما ما يكون بين المرء وزوجه .

وهذا ولا ريب ، سوء ظن بالانسانية ، وكفر بالفضيلة والمثل العليا .

ذكر الخطيب البغدادي ، عن الغزي قال : رأيت عاشقين ، اجتمعا فتحدثا من أول الليل الى الغداة، ثم قاما الى الصلاة ،وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

لله وقفة عاشقين تلاقيا ... من بعد طول نوى وبعد مزار
يتعاطيان من الغرام مدامة ... زادتها بعداً من الأوزار
صدقا الغرام فلم يمل طرف إلى ... فحش ولا كف لحل إزار
فتلاقيا وتفرقا وكلاهما ... لم يخش مطعن عائب أو زاري

وقد اشتهر بهذا اللون من الحب (بنو عذرة) وهم حي من أحياء العرب ، عرفوا بصدق الحب ، وطهارة القلب ، والعفة المنقطعة النظير ؛ سئل بعضهم : ممن الرجل ؟ فقال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، فقال : أنت عذري ورب الكعبة .

إن مثل هذا الحب لو كان مكروهاً ، لما رأينا رسول الله (ﷺ) يؤنب أصحابه لأنهم وقفوا ضد هذه العاطفة النبيلة .

ذكر داود الإنطاكي في كتابه «تزيين الأسواق» ان عبد الله بن علقمة أحب «حبيشا بنت سعد» حباً ملك عليه مشاعره، واستولى على حسه وعقله، فعرضت عليه أمه أجمل فتيات الحي، لعله يشغل بواحدة منهن عن (حبيش)، وقيل له: ما ترى فيهن؟ قال: حسناً وجمالا، فقيل: أيّما أحسن، هن أم حبيش؟ فتنفس الصعداء، ثم قال: «ماء ولا كصدآء، ومرعى ولا كالسعدان» فصارا مثلين عند العرب.

واتفق أن رسول الله (ص) أرسل سرية الى قبيلة (جذيمة) وأمر عليها خالد بن الوليد، فصادفوا أهل الحي ظاعنين، ورأوا عبد الله بن علقمة، يسوق إبلًا له، فأمسكوه، وعرضوا عليه الاسلام، فاستمهلهم، حتى وصل الى الهودج الذي به محبوبته، ثم قال:

فإن يقتلوني يا حبيش فلم يدع هواك لهم مني سوى غلة الصدر
فأنت التي قفلت جلدي على دمي
وعظمي واسبلت الدموع على النحر

فأجابته:

ونحن بكينا من فراقك مرة وأخرى وقاسينا لك العسر باليسر
وانت (ولا تبعد) فنعم أخو الندى
جميل المحيا في المروءة والبشر

ثم قام غلام من المسلمين، فضربه بسيفه، فخر صريعاً، فلما رأت «حبيش» ذلك ألقت بنفسها من الهودج وهرعت اليه، فقبلته، ثم شهقت شهقة كانت فيها نهايتها، ولما عرض الأمر على

رسول ، انبهم تانيبا شديدا ، ثم قـــال : (اما كان فيكم رجل رحيم ؟)

* * *

ولعل القارىء يدرك الفرق بين هـذا الشاعر الاناني ، الذي يرى الخير لنفسه فحسب ، فاذا لم يوفق اليه ، فلا يبـــالي أهلك الناس ام عاشوا ، حيث يقول :

أمعذبي بالهجر (والموت دونه) إذا بت ظمآنا فلا نزل القطر

وبين ذلك الفيلسوف الرحيم «ابي العـــلاء المعري» الذي يأبى أن يدخل الجنة منفرداً ، بل لا بد ان يشاركه في ذلك جميـع الناس ، حيث يقول :

ولو اني حبيت الخـــلد فرداً لمـــا أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت عـليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البـلادا

على ان هناك عاطفتين كريمتين، يعتبران من اسمى العواطف، وأنبلها طراً ، عاطفة الأمومة ، وعاطفة حب الوطن.

ولا ريب ان عاطفة الامومة من افضل العواطف التي وهبها الله للحيوانات ، في تعلقها بصغارها ، وعنـايتها بها ، وحمايتها من الخطر ، وهي مدفوعة الى ذلك ، بعـامل المحافظة على كيانها ، واستبقاء جنسها .

انك لترى الدجاجـة تفزع وتهرب ، ان هي شاهدت كلباً ، لكنها ان كانت الى جانب فراخها ، صمدت للكلب ، وتجهمت له بكل ريشها ، وصرخت ، فإن اقترب منها لم تتردد في الوثوب عليه، والحق انها في هذه الحالة، لا تتردد في الوثوب على سيارة مقبلة .

وأنثى الحوت ، تحب ابنها الرضيع حباً جماً ، وتلازمه سنة كاملة ، تغذيه فيها ، وتحافظ على سلامتـــه ، واذا مسه الضر ، أصابتها ثورة من الجنون ، واصبحت من أفظع حيوانات الطبيعة ، ويمكنها اذ ذاك ان تحطم قارباً كبيراً ، وترسل من فيه الى الهلاك ، وهي تبقى بجانب ابنها بعدان يموت .

وأما (عاطفة حب الوطن) فمن مقوماتهـــا شعور الانسان بالأمن الاجتماعي في وطنه ، وكما ان الآمن في بيته يدفع عنـــه الخطر ، كذلك الآمن في وطنه يدفع عنه العدوان ، دفعاً يحتمه الواجب ، وتذكيه تلك العاطفة ، فالأمن صنو الحب ، والخوف صنو الكراهية .

ان محمد بن عبدالله ، حينما عصم المسلمين من الخوف ، وامنهم من اليأس ، خرج في حفنة منهم يشق برسالة التوحيد حدود العالم الجديد .

ولعلك بعد هذا تدرك السر في تلك البطولة الخارقـة ، التي كان يبديها اليابانيون اثناء الحرب ، وكيف كانوا يقدمون على الموت بنفس مطمئنة ، وقلوب غير هيابة ، إن العاطفة الوطنية كانت عندهم قوية ملتهبـة ، وبهـذه العاطفة كانوا يتساقطون على الموت تساقط الفراش على النار ، في انبل موطن واكرمه .

وقل مثل ذلك في (العاطفة الدينية) فهي التي كانت تدفـع المسلم ، في فجر الاسلام ، الى ان يخوض غمار القتال ، مستهيناً – في سبيل الله – بالمال والولد ، مردداً قول الشاعر :

ولست ابالي يوم أقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي

بل ومن أعجب العواطف التي تستبد بالأنسان ، وتملك عليه مشاعره ، عاطفة المرء نحو شيء بعينه ، اذا فقد ، اختل كيانه ، وطارت نفسه شعاعاً ، فيظل طيلة حياته كئيبا حزينا مضطربا :

ذكر ابن نباتة المصري في كتابه (مرح العيون) أن الخنساء دخلت على أم المؤمنين (عائشة) وقد جعلت على جسدها صدارا من شعرها ، فقالت عائشة :

يا خنساء ، أتلبسين الصدار، وقد نهى عنه رسول الله؟ فقالت: يا أم المؤمنين ، لا أعلم بنهيه ، ولهذا قصة :

لقد زوجني أبي رجلا متلافا لماله فأسرع فيه حتى نفد ، فقال: الى اين تذهبين يا خنساء ؟ فقلت: الى أخي (صخر). فلقيناه ، فقسم ماله بيننا شطرين ، ثم خيرنا ؛ فقالت زوجته (سلمى بنت عوف): أما كفاك أن تقسم مالك حتى تخيرها ؟ فأجابها : يا سلمى، لو انني مت أو قتلت فسوف تتزوجين غيري ، اما هذه ، فسوف تحزن أبد الدهر ؛ ثم أنشد :

والله لا أمنحها شرارها   وهي حصان قد كفتني عارها
ولو أموت مزقت خمارها   وجعلت من شعرها صدارها

فجعلت هذا الصدار ، يا أم المؤمنين ، تصديقاً لظنه ، فلا أنزعه حتى اموت ، ثم بكت الخنساء وانشدت :

ألا يا صخر إن ابكيت عيني   فقد اضحكتها زمناً طويلا
بكيتك في نساء معولات   وكنت أحق من ابدى العويلا
إذا قبح البكاء على قتيل   رأيت بكاءك الحسن الجميلا

والخنساء هذه التي بكت فبكى لبكائها الجماد ، وأنّت فأنّ

لأنينها الحجر ، لم تذرف لها عين ، ولم تهتز لها جارحة ، حينا أتاها النبأ بصرع بنيها الأربعة في موقعة (القادسية) ، ولم تزد على ان قالت : (الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم).

ولقد صدقت فراسة (صخر بن عمرو) في زوجته (سلمى) فعندما أصيب صخر ، في يوم من ايام العرب ، يعرف (بيوم الكلاب) مرض سنة كاملة لا يبرح الفراش ، فكانت امه تلاطفه ، أما سلمى فقد تنكرت له ، وقصرت في خدمته ، وسئمت من عيشته. وسمع (صخر) يوماً احدى الجارات تقول لأمه : كيف حال صخر ؟ فأجابتها : نحن بخير ما دمنا نرى شخصه ، وسئلت زوجته فقالت : (لا حي فيرجى ولا ميت فينعى) .

وجاء في كتاب (النزهة) ان صخراً جلس يوماً ليستريح ، وقد رفعت له سجف البيت ، فرأى (سلمى) واقفة تحادث رجلا من بني عمها . وقد طوق بيده خصرها ، وسمعه (صخر) يقول لها : أما لهذا الجمال من ثمن ؟ فقالت : نعم عن قريب ، فقام صخر الى سيفه فجرده ، وهم بقتل سلمى ، فلم يستطع حمله فبكى وأنشد :

أرى (ام صخر) لا تمل عيادتي ... وملت (سليمى) مضجعي ومكاني
وما كنت أخشى ان أكون جنازة ... عليك ، ومن يغتر بالحدثان ؟
أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان
لعمري لقد نبهت من كان نائماً ... واسمعت من كانت له أذنان
فأي امرىء ساوى بأم (حليلة) ... فلا عاش إلا في اسى وهوان
ولَلموتُ خير من حياة كأنها ... محلة يعسوب برأس سنان

الشِّدَّةُ علَى الْمُتَعلِّمينَ مُضِرَّةٌ بِهم .

« ابن خلدون »

عقدة الأب

FATHER COMPLEX

لقد كانت الفلسفة المسيحية تذهب الى عهد قريب ، الى ان الطفل شرير بطبعه ، وانه يولد محملا بكثير من الشرور والآثام، فيجب ان يقمع ذلك فيه ، بالشدة والعنف ، وان يسلك به سبيل التعذيب والإيلام ، ولقد نحا (المتنبي) هذا المنحى في شعره فقال :

والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفـــة فلعلة لا يظـــلم

وهذا عين الخطأ ، فلا الطفل شرير بطبعه كما تقول (الفلسفة المسيحية) ولا هو خير بطبعه ، كما يقول (جان جاك روسو)؛ كما ان عقليته ، ليست كالصحيفة البيضاء ، يسطر المربي عليها ما يشاء كما ذهب الى ذلك (جون لوك) .

ولكن الطفل يولد مزوداً بالغرائز والنزعات الفطرية ، وهي ميراثه من ابويه ، ومن النوع الانساني ، فعلينا ان نعمل مع هذه

---

١ ــ نشرت بمجلة الرسالة عام (١٩٥١) .

النزعات ، لا ضدها ، وان نحاول اعلاءها وتكوين العواطف النبيلة فيها .

وهناك مرحلتان من مراحل النمو ، لهما اكبر الاثر في حياة الناشيء ، فإن هو جازهما بسلام، فقد اجتاز العقبة كلهـــا ، الى شاطيء الأمان ، وإن تعثرت خطاه فيها ، أو لعبت بنفسه أعاصير التربية الصارمة ، فإنني أخشى أن تهوى بنفسه أمواج الأمراض النفسية الى قرار سحيق .

أما أولاهما : وسنقتصر الكلام عنها الآن : فهي مرحلة الطفولة المبكرة ، ويعلق (فرويد) عميد علماء التحليل النفسي ، و (آدلر) مؤسس علم النفس الفردي ، أهمية كبرى على هذه المرحلة ، ففيها تتكون اهم قوالب السلوك عند الانسان ، وهي التي تحـــدد الخطوط الأساسية ، لشخصيته فيما بعد .

ولقد دلت البحوث النفسية على أن كثيراً من الانحرافات النفسية الحقيقية ، والخطورة التي يصاب بها الشاب أو الرجـل ، ترجع الى صدوع نفسية في الطفولة الأولى .

وفي هذه المرحلة ، يأخذ الطفل فكرة عن نفسه مما نوحي به اليه نحن ، فالطفل الذي ننعته بأنه شقي ، وبأنه مجرم ، وبأنه لا يفلح ، سرعان ما يتشرب هذه الفكرة عن نفسه ، ويعمـل على ان يسير بمقتضاها .

وعلى العكس من هذا إذا اخذنا نصف الطفل ، بأنه مهذب ، وبأنه شجاع ، فإنه يتقبل عن نفسه هذه الفكرة ، ويتشبع بها ويجهد نفسه في تنفيذها . وفي هذه المرحلة ، يتكون لدى الطفل

سلطة داخليــة ، هي ما نسميهـــا (بالضمير) أو الرقيب ، او الحافظ ،كما يقول الله (سبحانه) : « إن كل نفس لما عليها حافظ » . وكما قال الشاعر :

لا ترجع الأنفس عن غيهـــا ما لم يكن منها لهـــا حافظ

هذا الضميراو الرقيب، إن هو الا خليفة الأبوين ، ويتكون (لا شعورياً) عن طريق الأوامر والنواهي التي تصــدر منهما إليه ، فإن كان الأب من الصنف الصارم الجافي ، الذي يحاسب على اللفتة والحركة ، ويعــاقب على السهوة ، ويسرف في الأمر والنهي ، والصفع واللكز ، ويفرط في التأنيب واللوم ، فإن هــذه التربية كما يقول الدكتور (عزت راجح) في كتابه (الأمراض النفسية) تصبح لها صدى في ضمير الطفل (اللاشعوري) يمثل السلطة الأبوية ، فترى ذلك الضمير ، قد اصبح يتطلب من الطفل ما يتطلب ذلك الأب المتعسف واكثر ، يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة ، ويحرم عليه القيام بأشياء لا ضرر منها ، ولا ضير عليها ، فترى الطفل يشب ، وقد أمسى شديــد الحساسية لنفسه والناس ، شديد الحذر من نفسه ومن النــاس ، يغشاه شعور صريح أو مضمر بأنه مخطىء او آثم ، وبهذا تتكون عنده عقدة الاثم والحاجة الى عقاب النفس ..

وجاء في كتاب (أسس الصحة النفسية) الدكتور (القوصي) عند الكلام على (عقدة الأب): منشأ هــــذه العقدة ، القسوة والصرامة ، وشدة الجو المنزلي ؛ ويترتب على قسوة السلطــة ، وامتصاص الطفل لها ، أن يعكسها على نفسه ، ويعكسها على

الناس ، وعندما يعكسها على نفسه ، يكون قاسياً عليها ، شديد النقد لها ، كثير التبرم بها ، غير راض عنها ، شاعراً بخطئه على الدوام ، يخشى لوم الناس ونقدهم ، ويحسب لهم ألف حساب ، وعندما يعكسها على الناس ، يكون ايضاً شديد النقد لهم قاسياً عليهم ، يتمتع بإبراز خطاياهم .

* * *

وقد ذكر علماء النفس : أن هذا باب جديد ، فتحه فريق من اصحاب التحليل النفسي ، وخطوا فيه خطوات موفقة ، واستطاعوا به تعليل كثير من مظاهر السلوك الزائغ والاعتلال النفسي .

وفات هؤلاء ، أن هذا الباب الجديد ، قد طرقه الفيلسوف العربي الكبير (عبد الرحمن بن خلدون) واستقصى البحث فيه منذ ستة قرون .

فقد ذكر (ابن خلدون) في مقدمته الخالدة (ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم) ؛ وعلل هـذا ، بأن من كانت نشأته في احضان القهر ، وتربيته في مهـاد القسوة والعنف ، لا سيما إذا كان صغيراً ، سطـا به القهر ، وضيق على النفس في انبساطهـا ، وذهب بنشاطها ، ودعـا الى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث ، (وهو التظاهر بغير مـا في ضميره خوفاً من العقاب) وصارت له هذه عادة وخلقاً ، وفسدت معاني الانسانية فيه ، وعجز عن الدفاع عن نفسه ومنزله ، وصار عيالا على غيره في ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل

والخلق الجميل ، ثم ارتكس وعاد في اسفل سافلين .

ولم يكتف ابن خلدون ببيان الأثر ، الذي تحدثه سياسة (الشدة) في الأفراد ، بل ذكر ان اثرها في الأمم اشد خطراً، وأبعد اثراً .

فالأمة التي تقع فريسة للظلم والبغي ، حربة للشدة والعنف والاستبداد ، هي أمة ليس لها كيان ، وسرعان ماتقع في احضان الفساد الخلقي ، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها ولا الذود عن حياضها .

انظر الى (بني اسرائيل) وقد لبثوا تحت حكم الفراعنة احقاباً طوالاً ، يسومونهم سوء العذاب ، يذبحون ابناءهم ويستحيون نساءهم ، فلما أذن الله لهم ، واخرجهم موسى بعصاه ، من ارض الفراعنة ، الى صحراء (سيناء) اوحى الله الى موسى ، بأن يستعد هو وقومه لدخول الارض المقدسة،ومقاتلةمن فيها من(العمالقة) .

ولكن الخوف كان قد استبد بهم ، وذهب الرعب بقلوبهم كل مذهب ، وقد تعودوا ان يكونوا عبيداً للمستعمرين ، واستكانوا الى الذل والمصانعة والملق والنفاق. واستمع الى القرآن الكريم يروي الك هذه الحادثة ، في سورة المائدة فيقول :

« واذ قالَ موسى لقومِه اذكُروا نعمةَ الله عليكُم ، إذ جعَلَ فيكُم أنبياءَ وجعَلَكم مُلوكاً ، وآتاكم ما لمْ يُؤْتِ أحداً من العالمينَ ، ويَا قومِ ادخلُوا الأرضَ المُقدَّسةَ التي كتبَ اللهُ لكم ، ولا ترتدُّوا على أدْبارِكم فتنقلبُوا خاسرينَ »

«قالوا يا مُوسَى إنَّ فيهاقوماً جبَّارين،وانّا لنْ ندْخُلَها

ابَدا َما َداموا فيها ، فاذهبْ انتَ وربُّك فقَاتــلا إنا َهنا قَاعدون قـالَ ربِّ إني لا أمْلِكُ إلاّ نفسِي وأخي فافرق َبيْنَنَا وبينَ القوم ِالفاسقين

قال فإنّها ُمحرمَةٌ عليهم أربعينَ َسنَةً يتيهُون في الأرض فلا تأسَ على القوم ِالفاسِقين »

ثم بين (ابن خلدون) بعد ذلك ، ان الحكمة في وقوعهم في التيه (اربعين سنة) هو انقراض هذا الجيل الذي نشأ في احضان القهر والعنف ، ومجيء جيل آخر ، تربى في احضـان الصحراء ، وتحت سمع الحرية وبصرها ، وكان على يد هــذا الجيل (فتح الأراضي المقدسة) .

وكما يحلو لعلماء النفس ، ان يوجهوا نصائحهم وارشاداتهم الى مربي النشء ، فاننا نرى ابن خـلدون ، يدل المربين كذلك على الطريقة المثلى في تربية الاطفال فيقول :

فينبغي للمعلم في تلامذته ، وللوالد في ولده ، الا يستبـدوا عليهم في التأديب ، ومن احسن مذاهب التعليم ، ما تقدم بـه الرشيد لمعلم ولده (الأمين) فقال : « يا احمد ، ان اميرالمؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه، فصير يدك عليهمبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، وكن له بحيث وضعك اميرالمؤمنين ، اقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار، ورره الأشعار، وعلمه السنّة ،وبصره بمواقع الكلام وبرئه ، وخذه بتعظيم بني هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا ، ولا تمرن بك ساعة إلا وانت مغتنم فائدة تفيده اياها ، من غير ان تحزنه فتميت ذهنـه ، ولا

تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان اباهما فعليك بالشدة » .

ولقد كان (معاوية بن ابي سفيان) ابصر الناس بتربية الاولاد ، وأعرفهم بسياسة الشعوب ، وهو الذي يقول : « لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » ، قيل وكيف ذلك ؟ قال : « إن شدوها ارخيتها ، وان ارخوها شددتها » .

ودخل عليه (عمرو بن العاص) وعنده ابنته (عائشة) فقال : من هذه يا امير المؤمنين ؟ قال : هذه (تفاحة القلب) . فقال (عمرو) : انبذها عنك ، فانهن يلدن الاعداء ، ويقربن البعداء ، ويورثن البغضاء ؛ قال (معاوية) : لا تقل ذلك ، فوالله ما مرض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا اعان الاخوان إلا هن ، فقال عمر : يا امير المؤمنين إنك حببتهن اليّ .

وغضب معاوية يوماً على ابنه (يزيد) فهجره ، فقال الأحنف ابن قيس : يا امير المؤمنين، اولادنا ، ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليلة ، وبهم نصول على كل جليلة، فإن غضبوا فأرضهم ، وإن سألوا فأعطهم ، ولا تنظر إليهم شزراً ، فيملوا حياتك ، ويتمنوا وفاتك .

فقال معاوية : يا غلام ، إذا رأيت يزيد فأقرئه مني السلام .

وإذا مَـــا خلاَ الَجبانَ بأرضٍ

طلبَ الطعْنَ وحْدَهُ والنِّزالاَ

(المتنبي)

أَسَدٌ عليَّ وفِي الُحروبِ نعـــامَةٌ

فَتْخاء تَنْفِرُ مِن صَفِير الصَّـــافِرِ

هَلاَّ كَرْتَ إلى (غَزَالَةَ) في الوغىَ

بلْ كَانَ قلبُكَ في جَناحيْ طَائِرِ

(عمران بن حطان)

الإزاحة النفسية

TRANSFERENCE

ذكرت كتب الأدب : أن (الحجاج بن يوسف) الثقفي ، والي الدولة الأموية على العراق ، كان جبارا لا يطاق ، شديد البطش بالناس ، سفاكا للدماء ، يأخذ بالظنة ، ويقتل بالشبهة ، فهو الذي اذل الأمة العربية وأخرس ألسنتها وقتل نخوتها ، وسلب حريتها .

يقول المسعودي في كتابه (مروج الذهب) أنه أحصي من قتله الحجاج في غير الحروب ، فكانوا مائة وعشرين ألفاً ، ووجد في سجنه خمسون الف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، لم يجب على واحد منهم قطع ، ولا قتل ، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد ، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد..

ويذكر ابن قتيبة في كتابه « الإمامة والسياسة » ان الحجاج حينما تولى أمر العراق ، دخل المسجد الجامع بالكوفة ، وجعل على كل باب من ابواب المسجد ثمانين جندياً ، وقال لحرسه : اذا رأيتموني وضعت العمامة على ركبتي ، فسلوا سيوفكم ، واضربوا

من تجدونه من الناس .

ثم صعد المنبر ، وجلس لا يتكلم ، حتى ظن به بعض الناس العي ، واراد بعضهم ان يأخذ حصيات من الارض ليرجمه بها ، فقام الحجاج ، وحسر اللثام عن وجهه ثم قال :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى اضع العمامة تعرفوني

والله إني لأرى رؤوســاً قد أينعت ، وحان قطافها واني لصاحبها ، واني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى ، والله لأنكلن بكم في البلاد ، ولأجعلنكم مثلاً في كل واد ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل؛ وإني يا أهل العراق ، لا أعد إلا وفيت ، ولا اعزم إلاامضيت ، من اعياه داؤه ، فالسيف عندي دواؤه، ومن ثقلت عليه رأسه ، عجلت به الى رمسه .

قلدني عبد الملك بن مروان (امير المؤمنين) بسيفين ، سيف رحمة ، وسيف نقمة ، اما سيف الرحمة فسقط مني في الطريق ، واما سيف النقمة فهو هذا .

« إنما انتم كأهــل قرية كانت آمنـــة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» .

* * *

ثم وضع الحجاج عمامته على ركبتيه ، فسل الجنود سيوفهم ، واعملوها في رقاب الناس ، حتى سالت الدماء في الشوارع انهاراً.

* * *

وهال امير المؤمنين (عبد الملك) ما صنعه الحجاج بالناس ،

وكيف اسرف في قتل الاسرى بوقعة (دير الجماجم) فشق عليه ذلك ، وكتب اليه يقول :

اما بعد ، فلقد بلغني عنك إسراف في الدماء ، وتبـذير في العطاء، وقد حكمت عليك في الدماء ، الدية في الخطأ ، والقصاص في العمد ، وحكمت عليك في الأموال ان تردها الى مواضعها، ثم تعمل فيها برأيي، فإنما هو مال الله ونحن امناؤه ، وإذ أعطاك الله (عز وجل) الظفر ، فلاتقتلن جانحاً ، ولا أسيراً ، وكتب في اسفل الكتاب:

اذا أنت لم تترك أموراً كرهتها
وتطلب رضائي بالذي أنا طالبـــه

فإن (تر) مني غفـــلة قرشية
فيا ربما قد غص بالماء شاربـــه

وإن (تر) مني وثبـة امويـة فهـذا وهذا كل ذا أنا صاحبـه

فلا تأمني (والحوادث جمة) فإنك تجزى بالذي انت كاسبه

فكتب إليه الحجاج

إذا أنا لا ابغي رضاك واتقي أذاك فليلي لا توارى كواكبه

وما لامرىء بعد الخليفة جنة تقيه من الأمر الذي هو راكبه

اذا قارف الحجاج فيك خطيئة لقامت عليه بالصياح نوادبـــه

* * *

ورغم تلك الصفات التي ذكرها المؤرخون، في قسوة الحجاج، فلقد استطاعت امرأة من الخوارج تسمى (غزالة الحرورية) أن تهزمه في ثانين معركة حربية، وكان كلما رجع من المعركة مهزوماً، صب جام غضبه على الشعب ، وانتقم شر انتقـــام من الضعفاء

والآمنين ، فقال الشاعر (عمران بن حطان) يهجوه :

أسد علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا كررت الى (غزالة) في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

* * *

وكانت (غزالة) هذه زوجة (شبيب بن يزيد) الخارجي ، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان ، والحجاج أمير العراق ، واستطاع ان يهزم جيوش الحجاج، وان يحاصره في قصر الكوفة ، وضرب باب القصر بعموده فنقبه .

ونذرت غزالة زوجته ، أن تصلي في مسجد الكوفة (عاصمة الحجاج) ركعتين ، تقرأ فيهما سورة (البقرة وآل عمران) ففعلت ، وجبن الحجاج أن يواجهها بالمسجد وفي هذا يقول الشاعر :

وفت (غزالة) نذرها يا رب لا تغفر لها

ولا ريب ان موقف الحجاج من غزالة ، وموقفه من الشعب ، ظاهرة نفسية ، تحتاج الى تفسير .

تعرف هذه الظاهرة ، عند علماء النفس (بالإزاحة) وهي غضب مكبوت في صدر مرءوس من رئيسه مثلا ، ولو انصب هذا الغضب على الرئيس ، لأضر بصالح المرءوس ، فتراه ينصب على الأولاد والخدم ، فقد يصب الأب جام غضبه على أولاده ، لأن رئيسه أهانه ، فلم يقو على رد الاهانة ، وفرنسا كانت تتحمل الاهانة تلو الاهانة ، وتتلقى الصفعة إثر الصفعة في الهند الصينية ، وعلى ايدي الأحرار من جيوش (فيتمنه) ولم تقو بالطبع على رد هذه الاهانات المتكررة على من هزموها ، فلا تجد لديها وسيلة

إلا أن تفرغ ما لديها من غضب مكبوت على المواطنين (من أهل الجزائر) .

وإذا ما خلا الجبــــان بأرض   طلب الطعن وحده والنزالا

* * *

والازاحة في حياتنا العامة ، كما تنصب على الأحياء ، تنصب كذلك على الأشياء الجامدة ، فإذا قدر لك ان تثير بعض الناس ، أو توقظ الغضب في صدره ، عمد هذا الى طربوشه فألقاه ، أو الى عمامته فجلد بها الأرض ، أو الى قبضة يـــده ، فأهوى بها الى المنضدة ، أو الى شعرات من رأسه يشدها شداً .

والازاحة ظاهرة شائعة عند الأطفال ، فإنك ترى الطفل يضرب دميته ، أو يضع لها الكحل في عينيهـــا ، أو يضعها في الفراش ، ويأمرها بالنوم حالاً ، ذلك أنه يكابد تلك الانفعالات النفسية التي يفرغها على دميته .

والزعماء السابقون في مصر (لا عفا الله عنهم) كانوا يجلسون في معبد الملك (الفاسق) سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير ، فلا تراهم إلا ركعاً سجداً ، يحركهم كما يحرك الطفل دميتـــه ، ويوجههم كما يوجه اللاعب القطع ، في رقعة الشطرنج ، فإذا ما قدر لهؤلاء الساسة أن يخرجوا لمقابلة الشعب ، لبسوا له جلد النمر ، وصبوا عليه من العذاب صباً .

ومن عجيب ان هؤلاء الذين عكفوا على عبادة الملك السابق ، عكوف اليهود على عبادة الذهب ، وسبحوا بحمده بكرة وأصيلاً ، هم اولئك الذين تراهم اليوم ، وقد تهافتوا على ذمه ، والنيل منه ،

تهافت الفراش على النار ، فكانوا من أشد الناس اسراعاً الى أكل لحمه ، وعرق عظمه ، والولوغ في دمه ، تلك هي سياسة الذئاب.

جاء في كتاب (غرائز الحيوانات) ان الذئب اذا اشتد به الجوع ، ولم يجد ما يأكله ، صرخ صرخة داوية يجمع بها حوله فريقاً من بني جنسه ، ويخرج في قطيع جائع شره ، والويل كل الويل ، إذ ذاك للبيوت التي لم تهيأ لها الحراسة الكافية . قال الثعالبي في كتابه (ثمار القلوب) فإذا حدث أن اشتبكت الذئاب في معركة وخرج أحدها من المعركة جريحاً ، هجمت عليه الذئاب ، فالتهمته التهاماً ، ومزقته شر ممزق. قال الشاعر يهجو صديقاً له ، ويصفه بالخسة ونكران الجميل :

وكنت كذئب السوء لما رأى دماً
بصاحبه يومـــاً أحال على الدم

فارْجِـع البَصَر هلْ ترَى مِنْ فُطورٍ . ثمَّ ارْجِـعِ البَصَر
كَرَّتينِ ينْقلِبْ إليكَ البَصَرُ خَاسِئاً وهُو حَسِيرٌ

الآية (٣) ، (٤)من سورة تبارك

النظرةُ الأُولى حمْقاء

مثل عربي

كنوز مطوية في البلاغة العربية

لا يسعك وانت تجول في ميدان الدراسات النفسية الحديثة، وتخوض في بحر الثقافة الأوربية الخضم ، إلا أن تعترف لعباقرة العرب ، بفضل السبق في هذا الميدان ، وتؤمن ايماناً عميقاً بأن في التراث العربي العريق ، كنوزاً مطمورة ، تحتـــاج الى من ينقب عنها ويخرجها من كهوف النسيان، الى عالم النور والعرفان.

لقد كان علم النفس القديم ، يرى ان ادراكنا للعالم الخارجي ، يبدأ بالاجزاء والتفاصيل ، ثم يربط بين بعضها بعضاً ، حتى يتألف الكل ، فأنت – على هذا الزعم – حينما ترى شخصاً تبدأ في إدراك اجزائه اولا (شعره ، عينيه ، فمه الخ ..) – فاذا كررت النظر ادركت الشخص في جملته وهيئته ؛ وبنـــاء على هذه النظرية ، كانت التربيـــة التقليدية الى عهد قريب ، تبدأ في تعليم الرسم بالخطوط والمنحنيات ، والدوائر ، والاشكال الهندسيـة ، ثم تنتقل بعد ذلك الى رسم القصص والحوادث ، والمناظر الطبيعية،

١ – نشرت بجريدة الاهرام عام (١٩٥٠) واعيد نشرها بالرسالة .

وعلى هذا الاسلوب كنا نسير في تعليم (القراءة والكتابة) على الطريقة الأبجدية ، ضاربين صفحاً عن كل اساس نفسي او تربوي .

فلما ظهر علم النفس الحديث ، وبزغت في اوائل القرن العشرين ، مدرسة (الصيغ الاجمالية) قلبت هذا الموضوع رأساً على عقب ، وقامت بتجارب شتى ، دلت كلها على ان الادراك عند الحيوان والانسان ، يسير من المجمل الى المفصل ، ومن الكلي الى الجزئي ، عكس ما كانت تقول به التربية القديمة .

فلو انك القيت نظرة على شخص او على صورة ، لكان اول ما تراه من الشخص شكله العام ، وأول ما تأخذه عن الصورة انطباعاً مجملاً عاماً ، فاذا اطلت النظر والتأمل ، او دعتك ضرورة عملية الى التحليل ، اخذت تفاصيل الشخص او الصورة تثب الى عينيك واحدة بعد الأخرى .

والادراك الاجمالي اكثر ما يكون وضوحاً وبروزاً ، عند الاطفال والحيوان ، فالطفل لا يحلل الاشياء في ادراكه ، وليست به حاجة الى التحليل ، والعنكبوت لا يعرف الذبابة ، إن قدمت اليه لا على نسيجه ، بل في مكمنه الذي يتربص لها فيه ، كأن الذبابة جزء من كل ، إن انفصلت عنه لم يعد لها معنى ؛ ومن اجل ذلك اختلفت الافراد في نظرها الى الأشياء ، فنظرة (الفنان) الى اللوحة الفنية ، ليست كنظرة الرجل العادي ، لأن الأول يدرك من تفاصيلها ودقائقها ما لا يدركه الثاني ، والطفل لا يرى في (عدة الساعة) ما تراه انت ، والعامي لا يرى تحت المجهر ما يراه عالم الاحياء ، ونظرة الفلكي الى السماء ليست كنظرة

سائر الناس ، ومن هنا تدرك سر الاعجاز في قوله تعالى :

(الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) .

وقد اجرى العالم النفسي (كهلر) تجارب على الدجاج ، أيد بها ان الكل سابق لادراك اجزائه ، فقد وضع بعض الدجاج في اقفاص ، تسمح لها باخراج رءوسها لتلتقط الحب من لوحة افقية ؛ ووضعت على اللوحة ورقتان رماديتان : احداهما فاتحة والاخرى داكنة ، وكلما حاولت دجاجة التقاط الحب من الورقة الفاتحة طردت ، ومن الاخرى تركت ، حتى تعلم الدجاج الالتقاط من اللون المقصود ، بعد (٦٥) تجربة ، ثم استبدلت الاوراق الفاتحة بأخرى اشد سواداً من الاوراق الداكنة ، فبادر الدجاج الى التقاط الحب من هذه الاوراق الجديدة ، وهذا دليل قاطع على ان الدجاج لم يدرك كل لون على حدة ، بل ادركه بالنسبة الى الشكل الذي يضم اللونين معاً ، ولو كان يدري كل لون على حدة ، لاستمر يلتقط الحب من الورقة التي تدرب على الالتقاط منها.

وقد احدثت هذه النظرية انقلابا خطيراً في التربية الحديثة ، واستفاد منها المربون في اسلوب التربية والتعليم ، فبدأوا في تعليم القراءة والكتابة بالجملة ثم بالكلمة ، ثم انتهوا الى تعليم الحرف .

واخذ الفنانون وأساتذة الرسم يبدأون في تعليم الطفل برسم الحوادث والقصص والمناظر الطبيعية ، لأنها تلائم نفسية الطفل وعقليته على عكس ما كانت تقول به (التربية القديمة) .

هذا ما ذكره (علماء النفس المحدثون) وقد تراءى لي بعد البحث العميق ، ان هذه النظرية على حداثتها ، وقرب عهدها بالعصر الذي نعيش فيه ، ليست بالنظرية المبتكرة ، ولا هي بالرأي المخترع ؛ (كما يدعي كثيرمن الأوروبيين) فلقد سبق اليها العالم الكبير (عبد القاهر الجرجاني) أمام البلاغة في عصره ، منذ تسعة قرون ، ولعلك تدهش ، ويأخذ بك العجب كل مأخذ اذا علمت ، ان عبد القاهر ، لم يخرم من هذه النظرية حرفا واحدا ، فاستمع اليه يقول في كتابه العظيم (اسرار البلاغة) وكان في معرض الكلام على التشبيه والتمثيل .

« انا نعلم ان الجملة ابدا ، أسبق الى النفوس من التفصيل ، وانك تجد الرؤية نفسها لا تصل (بالبديهة) الى التفصيل ، ولكنك ترى بالنظر الأول ، الوصف على الجملة ، ثم ترى التفصيل عند اعادة النظر ، ولذا قال العرب (النظرة الأولى حمقاء) وقالوا لمن يصف الشيء على غير حقيقته (فلان لم ينعم النظر ولم يستقص التأمل) .

وهكذا الحكم في السمع وفي غيره من الحواس فإنك تتبين من تفاصيل الصوت بأن يعاد عليك حتى تسمعه مرة ثانية ، ما لم تتبينه بالسماع الاول ، وتدرك من تفاصيل طعم الذوق ، بأن تعيده الى اللسان ، ما لم تعرفه بالذوق الأول ، وبإدراك التفاضل بين راء وراء ، وسامع وسامع .

وهكذا يسترسل عبد القاهر في الكلام عن المحسات ، حتى يصل بك الى قوله « والأمر في المعقولات كذلك ، نجد الجملة ابدا هي

تسبق الى الأوهام وتقع في الخواطر أولا ، وتجد التفاصيل مغمورة بينها ، وتراها لا تحضر الا بعد اعمال الروية ، واستعانة بالتذكر .

وكلما كان الكلام ادق تفصيلا ، واكثر ايغالا في ذكر دقائق الاشياء ، كان بليغاً في رأي عبد القاهر ، وذلك يأتي في امور :

(١) ان يكون الشبه المقصود من الشيء مما لا ينزع اليه الفكر ، ولا يقع في الوهم اول الامر ، بل يحتاج الى تثبت ، وتذكر ، وفكر للنفس .

فها هو الشاعر (المتنبي) يريد ان يصف (الحمى الراجعة) التي جاءته وهو بمصر ، فلا يذهب الى تشبيهها — كعادة الشعراء — بالهيب ، أو الجحيم ، او لفح جهنم ، بل يشبهها بغادة حسناء ، تزوره في الظلام على استحياء ، وترفض — لشدة كلفها به — ان تبيت معه على الفراش ، بل تفضل ان تبيت في عظامه ، وهي ليست ، كعادة المحبين ، تزوره يوما وتخلف يوماً ، لكنها لا تخلف وعدها ابداً ، استمع اليه يقول :

وزائرتي كأن بها حياء ... فليس تزور الا في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت في عظامي

يضيق الجلد عن نفسي وعنها ... فتوسعه بأنواع السقام

اراقب وعدها من غير شوق ... مراقبة المشوق المستهام

ويصدق وعدها والصدق شر ... اذا ألقاك في الكرب الجسام

اذا ما فارقتني غسلتني ... كأنا عاكفان على حرام

(٢) ومما يزيد التشبيه دقة وسحرا ، ان يجيء في الهيئات التي

تقع عليها الحركات ، كما في تصوير الشاعر (ابن الرومي) للخبّاز يصنع الرقاقة حيث يقول :

ان انس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه (كرة) وبين رؤيتها (قوراء كالقمر)
الا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة المــاء يلقى فيه بالحجر

(٣) ومن بلاغة التصوير عند(عبدالقاهر) ان يقع في شيء من هيئات الجسم وفيه تركيب وتفصيل ، استمع الى قول ابي نواس، يصف كأساً مذهبة ، ويصف الصور التي في الكأس بما رسمه الصناع ، في بلاد فارس ، ففي قاع الكأس ، نقشت صورة (كسرى) ملك الفرس ، وفي جوانبها صور لقطيع من الغزلان ، تطاردها جماعة من الفرسان ، وتصوب نحوها أقواسها ، وإنك لتعجب حين ترى الشاعر يصف الك الخمر ، وقد صبت في الكأس حتى بلغت حلوق الفرسان ، ويصور الماء مسكوباً فوق الخمر (لقتلها) وقد علا فوق رؤوسهم.

استمع الى هذه القطعة التصويرية الرائعة ، التي كان (الجاحظ) يقول اعجاباً بها (ما أعرف لأبي نواس شعراً يفضل هذه القصيدة):

ودار ندامى عطلوها وادلجوا بها-أثر منهم جديــد ودارس
أقمنا بها يوما ويومـا وثالثا ويومـا له يوم الترحل خامس
تدار علينا(الكأس) في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها (كسرى) وفي جنباتها مهى تدريها بالقسي الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبهــا وللمـاء ما غطت عليه القلانس

* * *

أما بعد : فإن الأمم تنهض على دعامات ثلاث ؛ تراث في

الماضي ، ورسالة في المستقبل ، ومشكلات في الحاضر ، لابد من دراساتها وايجاد الحل لها ، ولا بد لنا أن ندرس للناشئة اجمل الأشياء في ماضينا ، وان نزين ذلك في قلوبهم وان نفصل لهم ما كابده العلماء والفاتحون من مشقة وعنت ، وما أظهروه من صبر وبطولة ، كما لا بد ان نشرح لهم ما ادته الثقافة العربية الى العالم من تراث خالد ، وما برز فيه علماء الامة وفلاسفتها وما امتازوا به .

ولا بد بعد هذا كله ان نلقنهم ان للوطن العربي رسالة سامية هي نشر السلام والأمن والعلم والعمران في ربوع العالم .

ويجب ان تساهم المدارس العالية والجامعات في طرح مشكلات الحاضر للمناقشة والمناظرة بين الطلاب والاساتذة ومن يشترك معهم من رجال السياسة وقادة الفكر .

لسنا وان احسابنا كرمت يوماً على الآباء نتكل

نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

لا يَعْرفُ الشَّوقَ إلا مَنْ يُكابِدُه

وَلَا الصَّبَابَةَ إلا مَنْ يُعَانِيهـــــا

(شاعر عربي)

وعَذَلتُ أهـلَ العِشْقِ حتَّى ذقْتُه

فعجبتُ كيفَ يموتُ من لا يَعْشَقُ

(شاعر عربي)

التعـــاطف (١)
(المشـــاركة الوجدانيـــة)

لعله للمرة الثانية في تاريخ العرب ، تقوم (مصر) بإرسال قطار الرحمة الى المنكوبين من عرب فلسطين .

أما المرة الأولى ، فقد حدثت في عهد عمر بن الخطاب ، وقد اشتدت المجاعة في بـلاد العرب اشتداداً كبيراً ، وضنت السماء بمائها ، وتنمرت غيلان الجوع ، لكل ذي روح ، حتى جاوزت الناس الى أوابـــد الوحش ، وسباع الطير ، وجعلت الوحوش تأوي الى الأنس تبتغي عندها مطعماً ، أو تصيب لديها ما يقيم منها الأود .

ودب الفساد في لحوم الحيوانات ، حتى جعل الرجل يذبـح الشاة ، فتعافها نفسه ، من قبحها ، وفساد لحمها .

لقد هزلت حتى بدا من هزالها حشاها وحتى سامها كل مفلس

* * *

(١) نشرت بجريدة الأخبار المصرية عام (١٩٥٣) تحت عنوان (قطار الرحمة والتاريخ) .

وسمي هذا العام (عام الرمادة) لأن الأرض كانت قد احترقت ، من شدة القحط والجدب، حتى صارت اشبه ماتكون بالرماد .

أما أمير المؤمنين (عمر) فلقد اهمه هذا الامر هماً شديداً ، فرأى وهو والي الامة وراعيها ، ان يشارك الناس في ضرائهم ، وأقسم الا يذوق سمناً ولا لبناً ، حتى يحيا الناس ، وفرض على نفسه الزيت والخبز الجاف ، فلما ثقل عليه الزيت ، ظن انه إن طبخ له فربما كان اخف على معدته احتمالاً فأمر أن يطبخ له الخبز بالزيت ، وأكله مطبوخاً فكان اوجع له ، واعسر هضماً ، حتى تغير لونه واسود وجهه ، وكان (رحمه الله) شديد البياض ، فإذا قيل له : رفقاً بنفسك يا امير المؤمنين ، قال : كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يصبني ما اصابهم .

ورأى عمر ، ان يستغيث بواليه على مصر (عمرو بن العاص) فكتب إليه يقول :

« من عبد الله امير المؤمنين ، الى العاصي ، ابن العاصي ، سلام عليك ، أما بعد : افتراني هالكاً ومن معي ، وتعيش انت ومن معك ؟ فيا غوثاه يا غوثاه »

فلم يكد (عمرو بن العاص) يقرأ هذا الكتاب الذي يزجره فيه امير المؤمنين حتى كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم » لعبد الله (أمير المؤمنين) من عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : أتاك الغوث فصبراً صبراً ، لأبعثن إليك بعير،

أولها عندك ، وآخرها عندي » .

ثم أهاب عمرو بن العاص، بالمصريين ، فتبرعوا لاخوانهم من العرب ، وهكذا يعيد التاريخ نفسه للمرة الثانيـــة ، في عهد الثورة المباركة .

وإنك لتعلم : أن القطار (في اللغة) يطلق على الإبل يتبع بعضها بعضاً ، وبذلك سمي القطار في العصر الحديث ، تشبيهاً له بقطار الإبل ، لأن عرباته ، يقطر بعضها بعضاً .

وليس هذا هو المهم في الموضوع ، ولكن العبرة في ذلك ، ان الفقراء هم الذين قاموا بالنصيب الأوفر ، في مضمار التبرعات للاجئين ، حتى لقد ذكرت جريدة (الأهرام) أن نسبة المتبرعين من الفقراء ، قد بلغت ٩٠ ٪ من مجموعهم ، وان نسبة المتبرعين من الأغنياء قد بلغت ١٠ ٪ من مجموعهم .

* * *

ولما قامت مصر (بمشروع مكافحة السل) وأهابت بالمواطنين من ابنائها ان يتبرعوا ، هرع اصحاب الدخل القليل ، وابناء الطبقة المتوسطة والفقيرة ، الى المساهمة الفعالة في هذا المشروع .

وذهب مندوب اللجنة الى بعض (الإقطاعيين) ممن يمتلكون ثلاثين الفاً من الأفدنة ، فأخرج له (الباشا) قرشاً واحداً ، ثمناً لطابع واحد ، مساهمة منه في المشروع ؛ وفغر (المندوب) فاه ، ولم يسعه إلا ان ترك القرش وانصرف .

وعجب الناس من هذا الامر ، وتكلف بعضهم تعليلا لهذه الظاهرة ، ورده كثير من الناس الى البخل ، وارجعه آخرون

الى اللؤم والخسة .

ولكن هناك (علة خفية) وعامل نفسي هو الذي دفع هؤلاء الأغنياء الى مثل هذا العمل .

هناك ما يعرف عند علماء التحليل النفسي (بالتعاطف او المشاركة الوجدانية) . وهي: شعور الفرد بالحالات الانفعالية التي تحدث لدى فرد آخر .

انك حينما تشاهد رواية « درامية » او لعبة رياضية ، لاتملك ان ترى نفسك ، وقد اندمجت مع الممثل او اللاعب ، اندماجاً كلياً ، فتشعر كأنك اخذت مكانه ، تتألم لما يصيبه من ألم ، وتقوم بحركات « لا ارادية » وانت تتبع اللعبة او المنظر .

ولكي يكون هناك تعاطف أو (مشاركة وجدانية) بين الأفراد، يجب أن تكون لدى الفرد ، قدرة على التأثر بالموقف، وقدرة على فهمه ، وان يضع نفسه موضع الفرد المنفعل .

لماذا تحس بما يغشى المريض من ألم ؟ لأنه قد مرت بك حالة مماثلة ذقت فيها طعم الألم ،

ولماذا تشاهدالهرة قد ماتت من الجوع، فيدفعك هذا الشعور الى البكاء ؟ لأنك تعلم ان الجوع مؤلم ، وقد مرت بك حالات شعرت فيها بالجوع .

ولعلك بعد ذلك ، تدرك السر في ان الأطفال ، يقسون بشدة على الحيوانات الأليفة ، لأنهم لا يستطيعون ان يتخيلوا أنفسهم مكان هذه الحيوانات ، ولأنه لم تمر بهم حالات عرفوا عندها طعم الألم ، وكذلك لا يستطيع الأطفال مشاركة الكبار

فأراحهم وأتواحهم لأن الخبرة تعوزهم .

❋ ❋ ❋

وإنه لا يشعر بلذة الغنى ، إلا من ذاق طعم الفقر ، ولا يحس بنعمة العافية إلا من شعر بألم المرض ، (والصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يشعر به إلا المرضى) .

ولا تعجب بعد هذا ان ترى نفراً من اصحاب الجاه ، واهل السطوة والثراء ، الذين ولدوا وفي افواههم مـــلاعق من ذهب (كما يقال) يسمعون أنات المرضى ، ويرون بأعينهم ضحـــايا الفقر ، فلا يحرك ذلك منهم ساكناً ، ولا يهز لهم جارحة ، ولا تلين لهم كبد ، لأنه لم تمر بهؤلاء حالات مثل التي مرت بأولئك ، وقد أبدع الشـــاعر العربي ، حينما يصور لك الملامح النفسية ، ويظهر لك خفايا النفس الإنسانية فيقول :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيهـا

❋ ❋ ❋

وأعتقد ان الحكمة الكبرى ، والفائدة العظمى ، في (صيام رمضان) هي ان الله (سبحانه) يريد ان يغرس في القـــلوب رياحين المودة والإخاء ، والتعاطف والرحمة ، وقد ذكر الحكماء أن تعود الجوع ، والصبر على ألم المخمصة ، يبعث الرحمة في القلوب ، ويزيد من تعاطف الناس بعضهم على بعض .

فهذا (أبو العلاء المعري) قد اخذ نفسه بالزهد والتقشف ، وحملها على الجوع حملًا ، فكان أدامه (العدس) وفاكهته (التين) ، وبلغت به الرحمـة بالحيوان ، ان حرم اكل اللحوم على نفسه ،

وتعفف عن كل طعام خرج من ذي روح ، ولعلك تدرك ذلك في هذه الابيات :

غدوت مريض العقـــل والدين فالقني
لتعرف انبـــاء الأمور الصحائح

فلا تأكلن ما اخرج الماء ظالما ولا تبغ قوتاً من لحوم الذبائح
ولا بيض امات أرادت صريحه لأبنائهـــا لا للغواني الصرائح
ولا تفجعن الطير (وهي غوافل) بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع عسل النحل الذي بكرت له كواسب من ازهار نبت فوائح
فما أحرزته كي يكون لغيرها ولا جمعتـــه للندى والمنائح

* * *

بني زمـني هل تعلمون سرائراً علمت ، ولكـني بها غير بائح
ويعجبني دأب الذين ترهبـوا سوى اكلهم كد النفوس الشحائح
واطيب منهم مطعماً في حياته سعاة حـلال بين غـاد ورائح
فما حبس النفس (المسيح) تعبدا ولكن مشى في الارض مشية سائح

* * *

ومهما قيل في هذه الفلسفة من تطرف ، ومهما دار حولها من نقاش ، فاننا نعتقد ان الرحمة وحدها ، هي الدافع الاول والاخير ، الذي حمل ابا العلاء على هذا الكلام ، حتى لقد اشتط في هـذه الصفة ، فجاوز بها عالم الطيور والحيوان ، الى عـــالم الحشرات والهوام ، فهو الذي يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيـه محتاجا

كلاهما يتوقى (والحيـــاة له عزيزة) ويروم العيش مهتاجـا

* * *

رحم الله ابا العلاء ، إني لأرجو ان يبعث يوم القيامـــة امة واحدة ، لقد كان رحيماً بالانسان ، رحيماً بالطير والحيوان ، (والراحمون يرحمهم الرحمن) .

ذكر المؤرخون : ان ابا العلاء مرض يومـــاً ، فوصفوا له الدجاج ، فامتنع ، وألحوا عليه حتى اظهر الرضا ، فلما قدم اليه الديك مطبوخاً ، لمسه بيده ، فجزع جزعاً شديـــداً ، وقال «استضعفوك فوصفوك ، فهلا وصفوا شبل الأسد» ثم ابى ان يطعمه .

زَوجٌ من عودٍ خيرٌ من قُعودٍ

« مثل عربي »

والنفسُ كالطِّفل إن تُهْمِلْه شَبَّ علىَ

حبِّ الرَّضاعِ ، وإنْ تفْطمه ينفطِم

(البوصيري)

انفطام النفسي

ذكر ابو العباس المبرد في كتابه « الكامل » ما معناه : ان ذا الأصبع العدواني كان يحب بناته الأربع ، ويدللهن ، ويشتد في الغيرة عليهن ، وكان يعضلهن .

والعضل (في اللغة) أن يمنع الوالد بنته من الزواج ؛ حتى لقد حرم زواجهن على فتيان القبائل الأخرى ، كيلا تحتجب احداهن عن عينيه ، ولقد كان يأتيه الكفوء الكريم ، والشاب المهذب النبيل فيقابله في جفاء وبرود ، ويدفعه عن داره دفعاً .

فاشتد ذلك على بناته ، واصبحن يتربصن به الدوائر ، ويمقتنه اشد المقت ، على الرغم من حبه لهن ، وافراطه في تدليلهن ؛ إنها الغريزة الإنسانية ، غريزة المحافظة على النوع .

لقد كانت الواحدة منهن تقع في صراع عنيف بين تقديرها لأبيها ، وبين الحرص على ذلك الرباط المقدس ، الذي جعله الله سنة من سنن الكون ، وفريضة على ابناء آدم وبنات حواء ، إن الله خلقها لزوجها ، ولم يخلقها لأبيها .

وإنك لتعلم أن الصراع النفسي يؤدي إلى الكبت ، والكبت يؤدي الى عقدة نفسية ، والعقدة النفسية « هي خراج داخلي يظل مصدر التسمم النفسي الدائم ، والحرارة المرتفعة حتى تزول » .

فلا تعجب بعد هذا ان تنفجر إحداهن فتقول في فتى رده بوها :

أشمّ كنصل السيف جعد مرجل
شغفت بـــه لو كان شيئا مدانيا
وأقسم لو خيرت بين بقائـــه
وبين أبي لاخترت الا أبا ليـــا

قال أبو العباس المبرد : فاسترق ابوهن السمع يوما، وقد خلون يتحدثن ولا يعلمن به .

فقالت إحداهن : لتقل كل منا ما في نفسها ، ولنصدق جميعاً، قالت الأولى :

ألا ليت زوجي من اناس ذوي غنى
حديث الشباب طيب النشر والذكر
عليم بأدواء النساء كأنـه خليفة جان، لا يقيم على هجر

وقالت الثانية :

الا ليته يعطي الجمـــال بديهة له جفنة تشقى بها النيب والجزر
له حكمات الدهر من غير كبرة تشين فـلا فان ولا ضرع غمر

وقالت الثالثة :

اشم كنصل السيف جعد مرجل شغفت به لو كان شيئا مدانيا
واقسم لو خـــيرت بين بقائه وبـين أبي لاخترت ألا أبا ليا

ثم قالت الرابعة :

(زوج من عود خير من قعود)

فلم يسع الرجل الا ان يرضخ لصوت الواقع ، ويستجيب لداعي الحق فزوجهن جميعاً في قصة يطول ذكرها . هل كان ذو الاصبع العدواني على حق في موقفه الاول ؟ كلا بلا شك .

كثير من الناس من يشتد في الانانية ، ويشتط في تدليل اولاده فلا يحاول ان يجعل لهم منفذاً للاعتماد على النفس ، ومجابهة الحياة بما فيها من آمال وآلام ، وبؤس ، ونعيم ، فيظل احدهم كلاً على امرته ، لا يحسن التصرف في المشاكل الكثيرة التي تتعرض له ، وكثيراً ما يفشلون في حياتهم التعليمية ، ان كانوا ذكوراً ، واغلبهم لا يستطيع مجاوزة المرحلة الثانوية الا بشق الأنفس ، واغلب البنات لا يستطعن السير في الحياة الزوجية الا بعد مراس شديد ، ورياضة مضنية فمثلها كمثل الطفل الذي نزع قسراً من الرضاع ، وحيل بينه وبين ثدي امه .

إنه كما يجب علينا ان نفطم الطفل الرضيع اذا بلغ مرحلة خاصة من مراحل النمو ، فكذلك يتحتم على الآباء والامهات ان يعوّدوا ابناءهم الاستقلال في الرأي ، ومجابهة الحياة فلا يتدخلوا في كل صغيرة او كبيرة ، فان لهذه السياسة خطرها على الناشئين ، وهذا ما يعرف في علم النفس الحديث ، (بالفطام النفسي) .

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع ، وإن تفطمه ينفطم

وقد ذكر الدكتور (راجح) في كتابه «الأمراض النفسية»

أنه قد دلت ابحاث كثيرة على ان كثيراً من متاعب الكبـــار ومشاكلهم ، وانحرافاتهم ، وفشلهم في الحياة مردها الى قصور في الفطام النفسي ، واسباب هذه الحال ترجع في اغلب الأحيان الى انانية الآباء ، واستغلالهم المفرط لحقوق الابوة ، والافراط في الهدهدة والتدليل .

إن الافراط في التدليل والتربية التي تضيع ثقة الطفل بنفسه ، والتربية الاتكالية ، التي تميت في الطفل روح التفرد والاستقلال ، كل ذلك يخلق في الطفل صراعاً بين رغبته في الاعتماد على غـيره ورغبته في التحرر والاستقلال ، واثبات شخصيتـــه ، وينتهي الامر بكبت الرغبة الاولى غير المقبولة فتنشأ « عقدة الأم » .

ومن أمارات عدم الفطام النفسي ان ترفض الزوجـــة ترك البلدة التي تعيش فيها أسرتها ، او يرفض الفتى ترك البيت الذي تعيش فيه أمه ، وتلك سحابة قاتمة في سماء الحياة الزوجية كثيراً ما تمنع الزوج من النجاح في اعماله الاقتصادية او الاجتماعية ، ما دامت زوجته تقيده بالعيش في بلد خاص او في منزل خاص . ان الطبيعة بلا شك اعقل جداً من كثير من الآباء والأمهات الذين يقسرون أبناءهم وبناتهم على الانضمام لحظيرة الأسرة ، وإن وخطهم المشيب ، أو بلغوا من العمر ارذله .

الطبيعة رحيمة بابنائها وبناتها فهي تعلمهم الاستقلال حتى في أحط انواع الكائنـــات ؛ إنك لترى الذكر والأنثى من الطير يجتهد كل منهما في إقامة وكره وتنظيم عشه ، ثم حضانة البيض ، حتى اذا ما فقس ، وخرج الفرخ الصغير قاما برعايته ، وتكفلا

برزقه ، وجلبا الطعام له من مسافات بعيدة ، ثم يدربه احدهما او كلاهما على الطيران حتى إذا ما احس الوالدان بأن الفرخ قد شب عن الطوق ، وفي استطاعته ان يستقل بنفسه ، تركا له الحرية الكاملة في بناء عش جديد ، ودفعا به الى الخارج دفعاً ، فإن عاد اليهما مرة ثانية طرداه شر طردة .

والحمام كما يقول الجاحظ في كتابه (الحيوان) يقوم بأطعام فرخه ، ويعوّده على التقاط الحب ، فاذا ما احس بأنه أتقن هذه العملية ، تركه يلتقط الحب بنفسه . فإن حاول الفرخ التقاطه من فم ابيه او امه نقره هذا على رأسه عدة نقرات حتى يعلمه الاستقلال بالنفس .

وكثيراً ما تكون الزوجة مع زوجها هانئة وادعة تأتيها سعادتها رغداً من كل مكان ، فتأبى الأم الا ان تتدخل في امر بيتها ، وتقحم أنفها فيما ليس من شأنها ، فتفسد العلاقة فيما بين ابنتها وبين الزوج ، وتحرضها على التمرد عليه ، والخروج عن طاعته ، ثقة منها بأنها لا تزال وصية عليها .

ألا فلتعلم الأمهات ان الزوجة اقرب الى زوجها من ابيها وامها وانه لا صلة بين الأم وبنتها إلا صلة القرابة والرحم ، ولتتدبر الأمهات جيداً في هذه الوصايا العشر التي اوصت بها أمامة بنت الحارث بنتها يوم ان زفت الى بعلها فقالت لها :

يا بنية انك فارقت بيتك الذي منه خرجت ، وعشك الذي فيه درجت الى بلد لم تألفيه ، وقرين لم تعرفيه ، فكوني له أمة يكن لك عبداً واحفظي عني خلالا عشراً يكنّ لك ذخراً .

اما الأولى والثانية فالرضا له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة
وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وفمه وألا تقع
عينه منك على قبيح ولا يشتم منك الا اطيب ريح .
آما الخامسة والسادسة : فالاحتفاظ بماله ، والرعاية لجسمه
وعياله .
أما السابعة والثامنة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فان
تأخير الطعام ملهبة ، وتنغيص المنام مغضبة .
وأما التاسعة والعاشرة ، فلا تفشين له سراً ، ولا تعصين له
امراً . إنك ان افشيت سره أوغرت صدره ، وإن عصيت امره
لم تأمني غدره .
وإياك والكآبة بين يديه اذا كان فرحاً ، واياك والفرح بين
يديه اذا كان مهتماً .

أَرَى ماءً وبي عطشٌ شديـــدٌ

ولكنْ لا سبيــل إلى الوُرودِ

«شاعر عربي»

إنِّي وإِيَّاكِ كالصَّادِي رأى نَهَلاً

ودونه هُوَّةٌ يخشَى بهـــا تَلَفَــا

رأَى بِعَينيهِ مـــاءً عزَّ موردُهُ

وليسَ يملكُ دونَ المـــاءِ مُنْصرفَا

«شاعر عربي»

وعَيْن الرِّضَا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ

كما أنَّ عينَ السُّخطِ تُبدي المساوِيَا

الكبت والصراع النفسي

ذكر داود الانطاكي في كتابه « تزيين الأسواق » أن عبدالله ابن ابي بكر الصديق كان يحب عاتكة بنت زيد ؛ حباً ملك عليه مشاعره ، وسرى في روحه سريان الدم في الجسد، ودبّ في عظامه دبيب النمل في العاج .

لقد كانت « عاتكة » بنت زيد ابدع مثال صوره الله للجمال والطهر ، واسمى ما يتخيله المرء للحسن والعفة ، فكأنما هي ملاك سماوي هبط إلى عالم الأرض فكان هـذا الجمال الجسد ؛ وفي (بيت عاتكة) يضرب المثل لمن يظهر الصدود ، ويخفي المحبة كما قال الشاعر :

يابيت عاتكـة الذي اتعزّلُ حذر العدى وبك الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصـدود وإنني قسما اليك مع الصدود لأميل

وهكذا احب عبدالله عاتكة ، واحبته عاتكة ، لقد كان يخلو للعمل حين يعمل فينسى كل شيء حوله ، ويسبح في جو من الهيام ، والتفكير ، إن صورتها لتتمثل أمامه كما تتمثل السعادة للبائس، وإن وجهها الطاهر البريء ليبتسم له كما يبتسم الحظ السعيد لليائس ؛ حتى الصلاة ، لقد انشغل بها عنها ، فكان إذا ركع في

محرابه لا يدري كم صلى ، ولا متى صلى فكأنما كان عبد الله هو المعنى بقول الشاعر :

اراني اذا صليت يممت نحوهـــا
بوجهي ، وإن كان المصلى ورائيا
وما بي إشراك ولكــن حبها
وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويا
أصلي فلا أدري اذا ما ذكرتها
اثنتين صليت العشا أم ثمانيـــا

وفي لحظة من لحظات السعادة ، نامت فيها عين القدر ، وغفل عنها رقيب الحوادث تزوج عبد الله عاتكة ، فازداد كلفاً بها ، ولم يستطع الزواج ان يطفىء العاطفة المنصهرة بين المحبين .

لقد كان ابو بكر الصديق يحسب أن الزواج سيصرف ولده عبد الله عن التفكير في عاتكة ، شأن الانسان يغتني فينسى ايام فقره ، ويصح فينسى أيام مرضه ، ويتزوج فيجعل بينـه وبين العزوبة حجاباً مستوراً .

كأن الفتى لم يعر يومـــاً اذا اكتسى
ولم يــك صعلوكـــاً اذا ما تمولا
ولم يــك في بؤس إذا بات ليله
يناجي غزالا فــاتر الطرف اكحلا

ولكن الذي آلم ابا بكر واحزنه ، ان رأى ولده عبدالله قد نسي كل شيء الا عاتكة ، لقد ارسله في تجارة الى الشام فقفل راجعاً من منتصف الطريق لأنه لم يطق صبراً على فراق عاتكة .

ورجع ابو بكر من صلاة الجمعة الى بيته ، وقد صلى جميع الناس ، فأدهشه ان يرى ولده عبد الله قد ألهته زوجته عن كل شيء حتى عن الصلاة. وغضب ابوبكر وضاق صدره من تصرفات ولده ، فعزم عليه ان يطلق زوجته ، والا فهو بريء منه الى يوم القيامة ، وانبه تأنيباً شديداً . هنالك وقع عبدالله في صراع نفسي أليم ، ان هناك قوتين متكافئتين تصطرعان في نفسه ، بره بأبيه ، وحبه لعاتكة ، انها حرب بين الدين ، الذي يتمثل اكثره في طاعة ابيه ، وبين الدنيا التي تتجمع كلها في وجه عاتكة إنها اشبه ما تكون بحرب العصابات يتبادل الغلبة فيها العناصر المتنازعة فالمنتصر يتغلب على غيره ويظهر ، واذا علمت ان الناس على عهد عبد الله كان الدين عندهم هو كل شيء يضحون في سبيله بأموالهم وأنفسهم فلا تعجب بعد هذا ان ينحاز عبد الله الى جانب ابيه ، فيطلق عاتكة فهل انحسمت بذلك مشكلته ؟ كلا . . . إنه اخذ يعاني كبتاً مريراً ، وإنك لتعلم ان الشيء المكبوت موؤول ، وليس هو بميت ، والطاقة النفسية كغيرها من أنواع الطاقة لا تفنى . فكان مثل أبي بكر في ذلك كمثل الذي يقول :
ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له

إياك إياك ان تبتل بالماء

أن ما هو مكبوت ليس شيئاً خامداً لا أثر له في الحياة النفسية للفرد ولكنك تشعر به في قاع النفس نشطاً فعالاً ، يتطلب الاشباع ، ويلج جاهداً في الظهور ، إن مثله كمثل البخار المتسرب في جوف الأرض لا بد له من منصرف ، او تزلزل

الارض فتنشق عن بركان ، وقد ألمّ الشاعر العربي القديم بهذا المعنى فقال يصف حبه المكبوت لمحبوبته ويصور هذه الرغبة الملحة في الظفر بها ، ولكن لا يستطيع :

إني وإياك كالصادي رأى نهلا
ودونه هوة يخشى بها التلفا
رأى بعينيه ماء عز مورده
وليس يملك دون الماء منصرفا

ولا تعجب بعد هذا أن ينفجر نفس « عبد الله » بمثل قوله :

(أعاتك) لا أنساك ما ذر شارق
وما ناح قمري الحمام المطوق
لها منطق جزل ورأي ومنصب
وخلق سوي في حياء ومصدق
فلم أر مثلي طلّق اليوم مثلها
ولا مثلها في غير ذنب تطلق

وأشفق عليه ابوه ، وخاف ان يفنى جسده المعذب تحت ضربات الكبت العنيفة ، فأمره بمراجعتها فردها الى عصمته ثانية في قصة مشهورة ، ولما قتل عبد الله يوم الطائف رثته بقولها :

وآليت لا تنفك عيني حزينة
عليك ، ولا ينفك جلدي أغبرا
فلله عينا من رأى مثله فتى
أكر وأحمى في الهياج وأصبرا

إذا شرعت فيه الأسنة خاضها

إلى الموت حتى يترك الجون أشقرا

إن قصة عبد الله وعاتكة لتمثل الكبت ، والصراع النفسي بأجلى معانيها .

فما هو الصراع النفسي؟ وما هو الكبت في علم النفس الحديث؟

قبل ان نبسط القول في ذلك ، يجمل بنا ان ننبه القارىء الى ان الجهاز النفسي يتكون من ثلاث :

(١) الشعور ، او ما نسميه نحن (بالأنا) او النفس المطمئنة التي خاطبها القرآن بقوله « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي الى ربك راضية مرضية » .

(٢) اللاشعور ، وقد نسميه نحن (بالعقل الباطن) او النفس الأمارة ، وهي التي تأمر الانسان بالسوء وما ورد في كلام العرب من ذم للنفس ، ووجوب عصيانها فالمراد بذلك (اللاشعور) ولعلك تدرك السر في كلام البوصيري حينما يقول :

وخالف النفس والشيطان واعصهما

وإن هما محضاك النصح فاتهم

(٣) الرقيب او ما نسميه نحن (بالضمير) وقد سمّاه القرآن بالنفس اللوامة ، حيث يقول في مفتتح سورة القيامة :

« لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوّامة » .

لقد كان اكثر علماء النفس الى عهد قريب يعتقدون ان ليس في حياة الانسان الا جهاز واحد هو الشعور ؛ وان ظهر في سلوك بعض الأفراد ما لا يتفق وحالة شعوره ، أرجعوه الى ما

وراء الطبيعة (الجن ، الأرواح ، المشايخ الخ) .

حتى جاء العالم النمساوي (فرويد) فاكتشف ان هناك في حياة الأنسان دوافع اخرى ليس مصدرها الشعور، بل هناك قوة اخرى كامنة وراء تصرفاتـــه ، وإن لم يشعر بها ، تلك هي (اللاشعور) او العقل الباطن، واستدل على ذلك ببعض الظواهر:

يحدث احياناً ان تسوقك رجلاك دون سابق قصد الى حيث يقيم صديق تحبه ، وينطق لسانك بعبـــارات والفاظ لا تقصد ذكرها في حضرة شخص تحرص على اظهار الود له ، ولكنـك تكن له غيظاً كظيما ، وتوحي الى نفسك بضرورة الاستيقاظ في تمام الساعة الرابعة صباحاً ، وغالباً ما تستيقظ ، وقد تنسى قـائمة الحساب التي يرسلها اليك التاجر .

فهل دبيب رجليك الى منزل من تحب ، وفلتات لسانـــك واستيقاظك في الساعة التي وددتها ، هل كل هذه الاشياء تصدر عنك عفواً ؟ كلا بلا شك ، فهذه مصدرها الجهاز الخفي من النفس وهو (اللا شعور) .

(١) — فالشعور اذن هو الجزء الشعوري من النفس ، وهو الذي يعمل ويفكر ويدرك الواقع في العالم الخـارجي ، وهـو الذي نعبر عنه (بأنا) فأنا أكلت وانا حكمت الخ. وهذه (الأنا) الشعورية صاحبة العواطف ، والميول منطقية ، خلقية ، تحـترم التقاليد ، تنام ليلًا وتستيقظ نهاراً ، وتشعر بتجاربها ، وتتصل بالعالم عن طريق الحواس .

(٢) — واللاشعور : هو قرارة النفس وقاعها ، يحتوي على

مجموعة الغرائز والنزعات الفطرية بشكـل لاشعوري ، وبصورة بدائية غير منطقية ، ولا صلة لها بعالم الاخلاق ، وهي دائمـة النشاط والسعي لكي تبرز الى الشعور ، وترمي من وراء ذلك الى الاشباع واللذة لا يقيدها في ذلك قيد ما .

(٣) ـ أما الرقيب أو الضمير : فهو سلطة ضابطة ، وهـو الناقد الأعلى للشعور ، وصاحب القدرة على الحكم عليه ، ويتكون الضمير في مرحلة الطفولة الاولى بما يتشربه الطفل من العـادات والتقاليد التي توحي بها اليه ، وكذلك يتكون عن طريق الأوامر والنواهي التي تصدر من الابوين فهو خليفة عنهما .

ويشبه (فرويد) الشعور واللاشعور بحجرتين متجاورتـين وبينهما ممر ، أما الحجرة الاولى التي تمثل الشعور فهي صغيرة نظيفة مرتبة ، يوضع فيها احسن ما في المنزل الذي هو «الحياة النفسية» بترتيب ، ونظام ، وهي معدة لاستقبال الضيفان من العـالم الخارجي .

وأما الحجرة الثانية التي تمثل اللاشعور ، فهي واسعة توضع فيها الاشياء المهملة او التي لا لزوم لها ، كما تكتظ بحشرات قذرة عجيبة ذات نشاط وسعي دائبة للتسلل الى الحجرة الصغيرة .

(٤) ـ ان وجود هاتين القوتـين المتعارضتين (الشعور واللاشعور) يحتم علينا افتراض قوة ثالثة هي الرقيب او (الضمير) الذي يقف في الممر بالمرصاد لسكان الحجرة الواسعة الذين يرغبون دائماً في المرور الى الحجرة الصغيرة ، وهو انما يسمح بالمرور فقط لمن يحمل منها مسوغات المرور .

اما من يسبب ظهوره عقابا او ايلاماً للشعور بسبب مخالفته للتقاليد او القانون او غير ذلك فلا يسمح له بالمرور ، فاذا ضعف الرقيب في حالات ، (الغفلة ، او النوم ، او الاستسلام لأحلام اليقظة ، او المرض النفسي) بـدت تلك الرغبات المكبوتة في صورة لا تؤذي الشعور ، في صورة مموهة مقنّعة رمزية ، غير مباشرة ، لان الرقيب حتى في هذه الحالات لا يزال يحتفظ ببعض سلطانه ، وهكذا تظهر الرغبات المكبوتة في الاحلام ، واحلام اليقظة ، وفي النكت ، وبعض حالات السكر ؛ ويصدق المثل العامي الذي يقول :

«ان الجائع يحلم بسوق العيش» .

إن احلام النوم قد تكون تنفيساً عن رغبات لم تتحقق في حياة الفرد والقي بها في غياهب اللاشعور ، فهي تظهر رمزاً ، وتنهض دليلاً على مكنونات النفس ، وما يجيش فيها من آمال عالية ، او اماني وضيعة ، او عواطف نبيلة ، او شهوات منحطة ، مما يتجمع في ظلمات اللاشعور ، ذلك البحر العميق الذي يجمع بين اللآلىء والاقذار ، وإنما تظهر اثناء النوم حين يكون الرقيب اقل تحكما منه في حالة اليقظة ، فتسنح الفرصة للرغبات الكظيمة في اللاشعور فتعبر عن نفسها تعبيراً صادقاً الى حد كبير .

ولقد كان « فرويد » اول من اهتم بالأحلام علمياً ، وتوصل الى تحليلها ، وتفسيرها على اساس علمي ؛ وقد بين أن للحلم مدلولا واضحاً في الصورة ، وآخر كامن وراءها .. ويمكن استخدام المدلول الظاهر في التوصل إلى المعنى الكامن ولذلك قيمة كبيرة

في الكشف عما نخفيه في انفسنا من اسرار وما نتمنـاه من أمان ومطامح .

لقد استطاع يوسف عليه السلام ان يدرك بما وهبه الله من قدرة ما وراء تلك الرموز التي قصها عليه الفتيان في السجن كما ورد في القرآن في سورة يوسف :

« ودخل معه السجن فتيان ، قال احدهما : اني اراني اعصر خمراً ؛ وقال الآخر : إني اراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ـ نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين » .

لقد كان احد الرجلين يدرك في قرارة نفسه انه بريء ، وانه لا يبرح حتى تظهر براءته ، ويكافأ بأن يعين ساقياً للملك ، واما الآخر فكانت التهمة قد احاطت بعنقه ، واصبح يتوقع الإعدام والصلب بين عشية وضحاها ، لكن هذه الرغبة المؤلمة قد كبتت في اللاشعور ، وظهرت في النوم بصورة رمزية كما رأيت في الآية الكريمة .

وقد استطاع نبي الله يوسف اكبر محلل نفساني في عصره ان يستشف وراء هذه الصورة الرمزية حقيقة واضحة فيقول كما جاء في الآية الكريمة من هذه السورة :

« يا صاحبي السجن اما أحدكما فيسقي ربه خمراً ، واما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضي الأمر الذي فيه تستفتيان » .

وتأويل الأحلام ، أمر ظني لا يصل الى مرتبة اليقين ، ولهذا لم يفت القرآن ان ينبه على هذه الظاهرة فقال على لسان يوسف :

(وقال الذي ظن انه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه

الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين) .

ولا يخرج الصراع النفسي (بعد هذه الجولة في ميـــدان (اللاشعور) عن ظاهرة بغيضة أليمة ، فهو لا يعدو ان يكون حرباً بين شقين من النفس ، بين خصمين او قوتين تضغطان عليها او تتجاذبانها في اتجاهين متضادين ، وهذا ما يضع الفرد في حالة من التردد والحيرة ، كما حدث من عبـد الله حينما عزم عليه والده في تطليق عاتكة .

فاذا اشتد الصراع او طال فانه قد يكف الفرد او يعطله عن العمل حتى يفض هذا النزاع ، هذا فضلاً عن ان الصراع يسبب للفرد ضيق الصدر وتوتراً نفسياً ظاهراً يبقى ما بقي الصراع .

فالتوتر النفسي ينشأ ان اعيقت رغبة ، اوحاجة ان تجد سبيلها الطبيعي الى الإشباع .

وينقسم الصراع الى (خارجي) وهو الذي ينشأ بين الفرد والمجتمع و (داخلي) وهو الذي ينشأ بين الفرد ونفسه ، وهذا اشد أذى للنفس وفتكاً بها من الصراع الخارجي .

وقد يعمد المرء الى مواجهـة الصراع صراحة ، ويأخـذ في تحليله ، ويحاول التوفيق بين عناصره المتضاربة ، او يلجـــأ الى تهدئة أحد الحافزين بتأجيله حتى يحين ظرف ملائم لإشباعه .

فان لم يوفق المرء الى فض النزاع بأحـدى هاتين الوسيلتين ، لجأت النفس الانسانية الى اسلوب اكثر سذاجـة ، وفجاجة ، كي تتجاهل تلك الرغبة الملحة ، او تلـــك التي لا يرتضيها المجتمع ، وذلك بأن تزيحها من دائرة الشعور الى منطقة اخرى من النفس

اقل صراحة ووضوحاً ، الى تلك المنطقة التي اصبحت تعرف بالعقل الباطن او النفس الخفية او اللا شعور ، وتسمى عملية الازاحة هذه (بالكبت) .

فلو ارتكب الفرد إثما أو شيئاتعافه نفسه ، او يسبب له وخزاً شديداً في ضميره عمدت النفس الى طرد هذا الإثم ، وما يحيط به من ذكريات مؤلمة الى ظلمات اللاشعور .

هذا وان كثيراً من حالات النسيان التي تصيب المرء ليست مجرد عفاء الذكريات من جراء تركها ، بل كبت ايجابي يرمي الى غرض وهو راحة النفس ، ولو بصورة سطحية من الألم والصراع . فنحن ننسى ما يسبب لنا الألم ، أو نتناساه ، ننسى المواعيد التي لا نرغب في لقاء اصحابها او في موضوعها ، ننسى ما علينا من دين ، ولا ننسى ما لنا عند الناس ، والصائم قد ينسى السحور ولا ينسى الفطور ، والحبيب ينسى ما في محبوبته من عيوب :

ولست براء عيب ذي الود كله ولا بعض مافيه (وان كنت رائيا)
فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما ان عين السخط تبدي المساويا

* * *

وقد يظهر الكبت واضحاً ، في فلتات اللسان والقلم ، فقد جاء في (كتاب الخلق واللاشعور) ما معناه :

طبيب يعمل بإحد المستشفيات ، كان يكره احدى الممرضات كراهة شديدة لانتقادها بعض تصرفاته ، وحدث ان مرضت هذه لممرضة ، وكان على هذا الطبيب ان يفحصها ، ويكتب لها الدواء ،

وكان مما كتبه لتتعاطاه دواء مقويا هو (فراتين) ولشد ما كانت دهشته حينما رد له الصيدلي الشهادة ، مشفوعة بخطاب يوضح له فيها ، انه قد يحدث خطأ في الكتابة ، فقد كتب (فراتوين) وهو سم زعاف ، ومن هذا المثال ، نرى ان كراهية الطبيب الشديدة للمريضة ، قد أظهرها لا شعوره بهذه القوة في فلتة قلمه .

أَيْقَنتُ أنَّ المُستحيلَ ثــلاثةٌ
الغولُ والعنقاء والخـــلُّ الوَفي
(شاعر عربي)

رأَيتُ رُقَى الشَّيطـانِ لاَ تستَفِزُّهُ
وقـد كانَ شيْطاني مِنَ الجنِّ راقِيَا
(الشاعر جرير)

وضَـاقَتِ الأرْضُ حَتَّى إنَّ هَـارِبَهم
إذا رأى غيرَ شيءٍ ظَنَّه رجُـــلا
(المتنبي)

شياطين الشعراء
بين الأساطير التاريخية والحقائق السيكلوجية

زعم اهل الجاهلية من العرب ، انه كان لشعرائهم ، شياطين يلهمونهم هذه العبقرية في كلامهم ، وان الشاعر (عبيد بن الابرص) كان له شيطان من الجن يسمى (هبيدا) وهو الذي اوحى اليه بقصيدته التي مطلعها :

طاف الخيال علينا ليلة الوادي   من ام عمرو ولم يلمم بميعاد

وفيها يقول :

الخير ابقى وإن طال الزمان به   والشر اخبث ما اوعيت من زاد
لا اعرفنك بعد الموت تندبني   وفي حياتي ما زودتني زادي

وكانوا يزعمون ايضاً ، ان القتيل إذا قتل ، خرج من هامته طائر يشبه (البومة) يقال له الهامة او الصدى ، ويظل هذا الطائر يصيح (اسقوني ، اسقوني) حتى يؤخذ بثأر القتيل ، فيكف عن الصياح ، وفي ذلك يقول ذو الأصبع العدواني :

---

(١) نشرت بجريدة الاهرام عام (١٩٥٠)

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي اضربك حتى تقول الهامة اسقوني

* * *

وتزعم العرب ايضاً : إن (الغول) في الفلوات ، وهي من جنس الشياطين ، تتراءى للرجل المنفرد في الصحراء ، في صورة انسان ، فلا يزال يتبعها حتى يضل عن الطريق ، فتدنو منه ، وتتلون له في صور مختلفة حتى تهلكه (خوفاً). قال كعب بن زهير يصف جمال المرأة ، وانها تتقلب في مودتها وتتلون ، كما تتلون الغول :

وما سعاد غداة البين إذ رحلت إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول
وما تدوم على حال تكون بها كما تلون في أثوابها الغول

* * *

ويزعم (ثابت بن جابر) المعروف (بتأبط شرا) انه لقي الغول وكلمته ، وقاتلها حتى قتلها ، وفي ذلك يقول :

ألا من مبلغ فتيان (فهم) بما لاقيت عند رحا بطان
فاني قد لقيت الغول تهوي بشهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها كلانا نضو دهر أخا سفر فخلي لي مكاني
فشدت شدة نحوي فأهوى لها كفي بمصقول يماني
فأضربها بلا دهش فخرت صريعاً لليدين وللجران
فقالت (عد) فقلت لها رويداً مكانك إنني ثبت الجنان
فلم أنفك متكئاً لديها لأنظر (مصبحاً) ماذا اتاني
اذا عينان في رأس قبيح كرأس الهر مشقوق اللسان

ولما بزغ فجر الاسلام ، أغار على هذه الاساطير ، وأعلن عليها حرباً لا هوادة فيها ، وأثار في ذلك الطريق المسلمين ، فقال عليه السلام (لا هامة ، ولا طيرة ، ولا غول ، ومن ردته الطيرة عن حاجته فقد كفر بما انزل على محمد) وقال الشاعر الاسلامي المتحضر :

أيقنت ان المستحيل ثلاثة (الغول والعنقاء والخل الوفي)

* * *

وزعم بعضهم : أن الواحد من الجن ، قد يكون شيطاناً لشاعرين مختلفين ، فيوحي الى احدهما نفس ما يوحيه الى الآخر :

ذكر صاحب كتاب (مواسم الادب) أن الفرزدق وجريراً ، ارتدفا ناقة الى (مدينة الرصافة) لمقابلة امير المؤمنين (هشام بن عبد الملك) ونزل جرير لبعض حاجته ، فتلفتت نحوه الناقة ، فزجرها الفرزدق بالسوط ثم انشد :

علام تلفتين وأنت تحتي وخير الناس كلهم امامي
متى تردي الرصافة تستريحي من الانساع والدبر الدوامي

ثم قال في نفسه : الآن يجيء جرير ، فانشده البيتين واخبره بقصة الناقة :

فيقول :

تلفت إنها تحت ابن قيس أبي الكيرين والفأس الكهام
متى ترد الرصافة تخز فيها كخزيك في المواسم كل عام

ثم جاء جرير ، والفرزدق يضحك ، ولما سأله عن السبب ، حدثه عن القصة ، وانشده البيتين الاولين ، فأجابه جرير على

الفور ، بالبيتين الاخيرين . فقال الفرزدق ، والله لقد انشدتها قبلك ، فضحك جرير وقال :

أما علمت ان شيطاننا واحد ؟

* * *

ولم تكتف الاساطير التاريخية بهذا ، بل قالت : ان الشياطين، قد يوحون بالنغم الشجي ، واللحن العبقري ، والرأي المختمر الذكي .

جاء في كتاب (تزيين الاسواق) ان ابراهيم الموصلي (مغني الخليفة الرشيد) كان قد استوهب الرشيد يوماً ، يخلو فيه مع اهله فوهبه اياه ، فزين بيته ، واتقن طعاماً ، وهيأ شراباً ، واوصى بحفظ الأبواب من كل طارق ، وبينما هو يعب كؤوس الخمر ، اذا هو بشيخ عليه قلنسوة، وثياب ناعمة ، وبيده عكازة ، وقد عبقت رائحة الطيب منه ، فسلم بلطف ثم جلس .

قال إبراهيم: فكدت والله اموت من الغيظ لولا انني روضت نفسي ودعوتها الى الصبر ، ثم اقبل الشيخ ، فذاكرني الأدب ، وأيام العرب ، حتى ظننت ان غلماني حبوني به ، لما رأوا من ظرفه وأدبه ، ثم قال بعدما أخذ شيئاً من الشراب . هل لك ان تغني شيئاً مما لحنته للرشيد ونبغت فيـــه ؟ فتجشمت المشقة وغنيت ، فقال : أحسنت يا إبراهيم ، فزاد غضبي وكدت أبطش به ، لسوء أدبه في حضرتي ، ثم استأذنني في الغنـاء ، فأذنت له متعجباً ، فأصلح العود ثم غنى :

ولي كبد مقروحة من يبيعني بها كبدا ليست بذات قروح

اباها عليّ الناس (لا يشترونها) ومن يشتري ذاعلة بصحيح ?
أئن من الشوق الذي في جوانحي أنين غصيص بالشراب جريح

ثم غير الصوت وغنى :

ألا ياحمامات اللوى عدن عودة فإني الى اصواتكن حزين
فعدن فلما عدن كدن يمتنني وكدت بأسراري لهن أبين
دعون بترداد الهديل كأنما شربن حميا أو بهن جنون
فلم تر عيني مثلهن حمائما بكين ولم تدمع لهن عيون

* * *

قال ابراهيم : فوالله ما سمعت بأحسن منه ، ولقد خلت ان العود والجدار ينطقان معه ، ثم غاب عني فجأة فلم أره ، فخرجت مغضبا ، وسألت عن الشيخ ، فقالوا نعيذك بالله ، لم يدخل احد ، فرجعت الى مجلسي افتش فيه ، واذا بهاتف من جانب البيت يقول : لا بأس عليك يا ابراهيم ، ما كان ضيفك إلا الشيطان ، فركبت الى الرشيد وحدثته بالقصة ، وكنت قد اتقنت اللحن فغنيته به كما سمعت ، فأحسن صلتي .

* * *

هذا مجمل ما كان يعتقده أهل الجاهلية من العرب ، وظلت هذه الفكرة عالقة بالأذهان ، حتى بعد ظهور الإسلام ، فالشعراء عند الناس لهم شياطين ، وليس في إمكان الشاعر ان يأتي بالكلام الرائع من الشعر ما لم يوح اليه شيطانه بذلك ، وما لم يهجس في خاطره بالشعر ، ومن هنا ندرك السر في تسمية العرب للشعر بأنه (رُقى الشيطان) والرُّقى جمع رقية وهي الكلام (يُرقى

به المريض او المسحور) .

وقفت وفود الشعراء بباب أمير المؤمنين (عمر بن عبدالعزيز) فلم يأذن لهم : فقال (عدي بن ارطأة) : أعز الله امير المؤمنين، إن رسول الله (ص) قد امتدح واعطى، ولك في رسول الله (ص) أسوة حسنة ؛ قال : كيف؟ قال : امتدحه العباس بن مرداس ، فأعطاه حلة ، فقطع بها لسانه ؛ قال أو تروي من قوله شيئاً ؟ قال نعم :

رأيتك يا خير البرية كلهـــا نشرت كتاباً جاء بالحق معلما
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا عن الحق لما اصبح الحق مظلما
ونورت بالبرهان امراً مدلسا واطفأت بالإسلام ناراً تضرماً
فمن مبلغ عني النبي محمـــداً وكل امرىء يجزى بما كان قدما
اقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه وكان قـديماً ركنه من تهدما

فقال عمر : ويلك يا عدي ، من بالباب منهم ؟ قال : عمر بن ابي ربيعة ، قال : اليس هو الذي يقول :

ثم نبهتها فمـــدت كعابا طفلة ما تبين رجـــع الكلام
ساعة ، ثم إنهـــا بعدُ قالت: ويلتا قد عجلت يا بن الكرام

فلو كان عدو الله إذ فجـر كتم عن نفسه لكان استر له ، لا يدخل والله عليّ ابداً، فمن بالباب سواه ؟ قال: الفرزدق؛ قال: او ليس الذي يقول :

هما دلّيـــاني من ثمانين قامـــة
كما انقض باز اقـــتم الريش كاسره

فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا

أحي فيرجى ام قتيـــل نحاذره ؟

لا يدخل عليّ والله ؛ فمن بالباب سواه ؟ قال : الأخطل ؛ قال : يا عدي اليس هو الذي يقول :

ولست بصائم رمضان طوعاً ولست بآكل لحم الأضاحي

ولست بزائر بيتـــاً عتيقـاً بمكة . أبتغي فيه صلاحي

ولست بقـــائم بالليل ادعو قبيل الفجر « حي على الفلاح»

ولكني سأشربها شمولا واسجــــد عند منبلج الصباح

والله لا يدخل عليّ وهو كافر أبداً، فمن سواه قال : الاحوص ؛ قال : أليس الذي يقول :

الله بيني وبين سيدها يفر بهـا وأتبعـــه

فما هو بدون من ذكرت ، فمن هنا ايضاً؟ قال : جرير ؛ قال : أما هو القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا

وقت الزيارة فارجعي بســـلام

فإن كان ولا بد فهو الذي يدخل، فلما مثل جرير بين يديه ، قال : اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقا ، فأنشده قصيـدته التي يقول فيها :

انا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنـــا

من الخليفـة ما نرجو من المطر

جاء الخلافة أو كانت له قدرا

كما اتى ربه موسى على قدر

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها

فمن لحاجة هذا الارمل الذكر

الخير ما دمت حيـــاً لا يفارقنا

بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فأعطاه الخليفة بعضاً من ماله الخاص ، فلما خرج جرير قال له الشعراء : ما وراءك ؟ قال : ما يسوؤكم ، خرجت من عنـــد خليفة ، يعطي الفقراء ، ويمنع الشعراء ، وإني عنه لراض ، ثم أنشد :

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه

وقد كان شيطاني من الجن راقيا

* * *

فما نصيب هذه العقيدة من الصحة ؟ وما تعليلهـــا في ضوء العلم الحديث ؟ قدمنا لك عند الكلام عن (الكبت والصراع النفسي) أن علماء النفس قديماً كانوا يعتقدون ، أن ليس في حياة الإنسان ، إلا جهاز واحد هو (الشعور) أو العقل الواعي ، وإن ظهر في سلوك بعض الافراد ما لا يتفق وحالة شعوره ، أرجعوه الى ما وراء الطبيعة (الجن ، الارواح ، الشياطين) ،ولما كان الشعر عندهم في مرتبة التقديس ، استكثروا على الفكر الانساني ان يأتي به ، فنسبوه الى قوة خفية ، ليست في طاقـة البشر ، وادعوا ان لكل شاعر شيطاناً يوحي اليه بالشعر .

فلما جاء العالم النمساوي (سيجموند فرويد) اكتشف ان هناك في حياة الانسان دوافع أخرى ليس مصدرها الشعور ،

بل هناك قوة اخرى كامنة وراء تصرفاته ، وإن لم يشعر بهـا ، تلك هي اللاشعور أو (العقل الباطن).

وقد ذكرنا لـك ان اللاشعور ، ينطلق عند غفلة الحواس ، بالنوم ، أو في غفلة الرقيب ، في احلام اليقظة ، او عند المرض. فكم من أمر ننساه ثم نتذكره ونحن نيام ، او إذا اصبنا بحمى ، أو اعطينا مخدراً ، كأن ما يضعف سلطة (الشعور) يفتح (باب اللاشعور) .

وقد ثبت ان اغلب المعاني التي يكتبها الأدباء والفنانون ، وأغلب القصائد التي يأتي بها الشعراء ، انمـا تأتيهم وهم بين النوم واليقظة ، أو في حالة ذهول تام عما حولهم ، وقد يصدر ذلك منهم وهم سكارى ، فـإذا صحوا لم يستطيعوا شيئاً . هؤلاء النوابـغ يذهل الواحد منهم فيتدفق كالسيل فيما ينظمه او يكتبه ، حتى اذا استيقظ من ذهوله ، بلدت قريحته ، وعتمت عن أمره . وقـد ثبت ان الحادث بن حلزة قد غضب يوماً وهو في حضرة (المنذر بن ماء السماء) فذهل عما حوله وارتجل معلقته التي تزيد عن مائة بيت ، والتي مطلعها :

آذنتنـــا ببينها أسمـــــاء   رب ثاوٍ يمل منه الثواء

* * *

ومن الحوادث التي تجري هذا المجرى : أن (ولتر سكوت) الكاتب الانجليزي المشهور أملى روايته (عروس لرمور) وهو مريض جسما وعقلا ، ثم لما شفي ، وقرئت له ، دهش لها ولم يصدق أنه هو الذي أملاها .

وما يقال عن الشعراء والكتاب ، يقـال عن المصورين والموسيقيين ، فإنهم يستنبطون ويخترعون ، كأنما يوحى إليهم ، ولا يدركون كيف يفعلون ذلك .

ولقد أصبح العلماء ، يبحثون اليوم فيما كان يعد بالأمس من اوهام أهل التصوف أو أهل الباطن ، وهو بحث جديد قال فيه العالم الكبير (وليم جيمس) إنه اعظم ما شادته الفلسفة العقلية حديثاً ، وكل يوم نرى له دعامة جديدة .

اما ما يرويه (ابراهيم الموصلي) عن الشيطـان الذي لقنه (اللحن) ان صحت هذه الرواية ، فمصدرها ان ابراهيم ، كان في حالة سكر شديد ضعف فيها شعوره فتخيل انه رأى شيطاناً، وانه أنشده الابيات ولقنه (اللحن) .

جاء في كتاب (رسائل الأرواح) للدكتور صروف ، أنه خطر للأديب الكبير (تايلر) ان يختبر بنفسه ، ما يسمعه عن احلام الحشاشين، وما يرون بأعينهم من دلائل بسطهم وانشراحهم، فتناول ملعقة صغيرة ، من عقار صنع من اوراق (القنب الهندي) والافاويه والسكر ، فرأى نفسه واقفاً عند هرم الجيزة الاكبر ، يحاول الصعود عليه ، واذا هو على قمته ، ثم تطلع الى اسفل ، فخيل اليه ان الهرم مبني من قطع من الدخان الانجليزي المعروف ، وانتقل بغتة الى الصحراء فرأى نفسه يجتازها في قارب مصنوع من عرق اللؤلؤ ، وهو مرصع بجواهر نادرة في حجمها وضوئها ، ولم يلبث الا قليلاً حتى نزل حديقة خضراء صفت فيهـا الاباريق ، بعضها الى بعض والعسل يقطر منها .

اما عن خرافة (الغيلان) عند العرب ، وهي اشبه ما تكون بخرافة (العفاريت) عندنا في بلاد الريف إفلنا في ذلك رأي آخر.

اننا ندرك في الاشياء ، ما نحن معتادون عليها وما نعرفه عنها وما نتوقعه فيها ؛ والذكريات المختلفة التي تزودنا بها الذاكرة، عندما نلاحظ شيئاً ، تتوقف على : (١) حالتنا الشعورية الراهنة واتجاه تفكيرنا (٢) كما تتوقف على ميولنا السابقة (٣) وعلى ما نتوقع ان نلاحظه في الشيء .

فلوا تسربت منك قطعة ذات قرشين ، لرأيت في كثير مما تقع عليه عينك قطعاً ذات قرشين ، ولو كنت تنتظر صديقاً ، فأنت تراه في مئات القادمين ، والأم المنشغلة عن طفلها في حجرة اخرى ، يخيل اليها انه يصبح كلما سمعت صوتا من الخارج ، ومن يخاف من العفاريت فإنه يراها ، واذا رفعت رطلا من الحديد ، وآخر من القطن ، لخيل اليك ان الحديد اثقل ، ولو سار فنان مع نجار وفلاح وعالم من علماء النبات لاختلفت ملاحظاتهم لمنظر طبيعي كل يراه على حسب ميوله ، والجبان في الحرب يرى مالا يراه الشجاع ، ولقد صدق الشاعر المتنبي اذ يقول :

وضاقت الأرض حتى ان هاربهم
إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

وكل هذا إنما جاء عن طريق التخيل والوهم ، وليس من الحقيقة في شيء .

ومما هو جدير بالملاحظة ان الجاحظ في كتابه (الحيوان) قد اهتدى بفطرته الصافية الى مثل ما اهتدى اليه علماء النفس المحدثون

في العصر الحديث .

جاء في كتاب الحيوان (في الذي تذكره الاعراب من عزيف الجن وتغول الغيلان) : اصل هذا الأمر وابتداؤه ، ان القوم لما نزلوا ببلاد الوحش ، عملت فيهم الوحشة ، ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء ، والبعد من الأنس ، استوحش ، ولا سيما مع قلة الاشتغال والمذاكرين ، والوحدة لا تقطع ايامهم الا بالمنى او بالتفكير ، (والفكر ربما كان من اسباب الوسوسة) . واذا استوحش الانسان ، مثل له الشيء الصغير ، في صورة الكبير ، وارتاب وتفرق ذهنه ، وانتقصت اخلاقه ، فيرى ما لا يرى ، ويسمع ما لا يسمع ، ويتوهم الشيء الصغير الحقير ، أنه عظيم جليل ؛ ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعراً تناشدوه ، وأحاديث توارثوها ، فازدادوا بذلك ايماناً ، ونشأ عليه الناشيء ، وربي الطفل ، فصار احدهم حين يتوسط الفيافي وتشتمل عليه الغيطان ، في الليالي الحنادس ، فعند اول وحشة او فزعة ، وعند صياح بوم ، ومجاوبة صدى ، وقد رأى كل باطل ، وتوهم كل زور ، وربما كان في الجنس واصل الطبيعة نفاجاً كذاباً ، وصاحب تشنيع وتهويل ، فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة ، فعند ذلك يقول : رأيت الغيلان ، وكلمتها ؛ ثم يتجاوز ذلك الى ان يقول قتلتها ، ثم يتجاوز ذلك الى ان يقول رافقتها ، ثم يتجاوز ذلك الى ان يقول تزوجتها ، قال عبيد بن ايوب :

فلله در (الغول) أي رفيقة لصاحب قفر خائف متنفر

ومما زادهم في هذا الباب ، واغراهم به، ومـدّ لهم فيه ، انهم ليسوا يلقون بهذه الاشعار، وتلك الاخبار ، إلا اعرابياً مثلهم ، والا غبياً لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التكذيب والتصديق، او الشك ، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الاجناس .

واما ان يلقوا (راوية) شعر ، او صاحب خبر ، فالراوية عندهم ، كلما كان اكذب في شعره ، كان اظرف عنـــدهم ، وصارت روايته اغلب ،ومضاحيك حديثة اكثر ، فلذلك صــار بعضهم يدعي رؤية الغول ، او قتلها ، او مرافقتها ، او تزويجها، (وما آفة الاخبار الا رواتها) .

القرآن والعلم الحديث

« إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَمَاءُ »

العلم يدعو الى الايمان (١)

كانت الصوفية المشهورة « رابعة العدوية » احدى ملكات الزهد في عصرها ، وكانت كثيراً ما تقول في مناجاتها لربها : « الهي ما عبدتك طمعاً في جنتك، ولا خوفاً من نارك ، ولكن عرفتك أهلاً للعبادة فعبدتك » .

فليتك تحلو (والحياة مريرة) وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
اذا كان منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

***

وهكذا : لا يكون المرء مؤمناً ، شديد الإيمان بالله ، إلا إذا كان عالماً شديد العلم بالله ؛ وما كفر الكافر ، ولا جحد الجاحد ، الا عن جهل بالله ، وبأسرار الكون الذي خلقه الله ، ومن جهل شيئاً عاداه ، والناس اعداء لما جهلوا :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً بـه الماء الزلالا

***

(١) ألقيت بعض هذه الفصول في قاعة المحاضرات بالجامعة الشعبية بالقاهرة وبعضها في النادي المصري بطرابلس .

ان الشمس وما يدور في فلكها من الكواكب ، ما هي الا قطرة في محيط ، او ذرة في صحراء ، بالنسبة للأفلاك البعيدة التي خلقها الله ، وان من النجوم مالا يصل الينا ضوؤها (على سرعته) الا بعد مئات السنين .

واني لأتوقع ذلك اليوم ، الذي يكتشف العالم فيه ، دقائق الكون ، واسرار الحياة ، فيصبح العالم كله مؤمناً بالله ، وصدق الله إذ يقول :

« سَنُرِيهِم آيَاتِنا في الآفاقِ وَفي انْفُسِهِم حَتى يَتبيَّن لهم انَّهُ الحق . اولم يكف بربك أنه على كلّ شيءٍ شهيد » .

وان القرآن الكريم (معجزة الله الخالدة في الأجيال) لم يكن معجزاً بفصاحته وبلاغته ، كما ذهب الى ذلك المفسرون القدامى فحسب ، ولكنه ايضا معجز بما فيه من الآيات العلمية ، والأسرار الكونية ، وبهذا كان القرآن صالحا لكل زمان ومكان .

واني لأهيب بالعلماء والمفكرين ، وبالصفوة المختارة من رجال الدين ، ان يدرسوا القرآن على ضوء العلم الحديث ، وان يعلموا ان المفسرين (القدامى) – مع احترامي لهم – انما كانوا يفسرون القرآن ، على حسب علمهم ومداركهم ، وجهدهم في ذلك (ولا ريب) مشكور ، ولكنني اقول كما قال (ابو حنيفة) في حق من تقدمه : « هم رجال ونحن رجال » .

وينبغي لنا ايضاً ، ان نفسر القرآن على ضوء العلم الحديث ، وبخاصة ونحن نصارع امما ، قد دبت فيها عقارب المادية ، وغزتها

جرائم الإلحاد ،وهم لا يؤمنون الا بالعلم الصحيح وحده ، المبني على البحث والتجربة ،ويمقتون اشد مايمقتون نظرية التقليد الأعمى.

« اولم يتفكروا في ملكوت السموات والارض وماخلق الله من شيء » ...

قرأت في بعض كتب « التفاسير » وهو كتاب متداول بين ايدينا ، ولا يزال يدرس في معاهد الازهر ، وقد ذهب المفسر عند قوله تعالى :

(ن ، والقلم وما يسطرون) ، الى ان معنى (ن) يطلق على الحوت ، المسمى (بهموت) الذي يحمل (الثور) الذي يحمل الارض على قرنيه .

وعجيب ان يدرس هذا القول ، وان يتداوله الناس ، وان يمتحن فيه طلبة المعاهد ، في الوقت الذي تحطمت فيه (الذرة) وانشطرت (النواة) واخترع (القمر الصناعي) والصاروخ عابر المحيطات .

* * *

ومن اجل هذا أكرر القول ، وألح في الرجاء ، وأهيب بالعلماء ، ان يدرسوا القرآن على ضوء العلم الحديث ، فسوف يجدونه حافلاً بكل ما يتمشى مع احدث النظريات الحديثة ، وسوف يأتي بعدنا من يكتشف للعالم اسرار اخرى ، لا نحيط بها نحن ، وسوف يكتشفون ايضاً في القرآن ما لم نستطع ان ندرك سره نحن .

* * *

ان ما نعرفه نحن الآن عن خواص الكهرباء ، قليل بالنسبة الى ما يمكن ان يعرف في المستقبل ، وما يدرينا لعلها تتطور ، او يخلفها قوات اخرى ، اشد غرابة وعجبا ، وهذا هو الحال في الذرة والراديو ، وغير ذلك من مختلف الاعاجيب التي هدى الله اليها العقل البشري .

يقول الفيلسوف الكبير (نيوتن) : ان البشر اليوم بالنسبة الى ما اكتشفوه من اسرار الكائنات ، كأطفال على ساحل المحيط ، ظفروا بودعات براقة وشظايا اصداف ملونة لماعة ، فشغلوا بها وظنوها كل ما عند هذا المحيط العظيم ، ناسين ما فيه من طرف ثمينة ، واعلاق نفيسة ، وكنوز كثيرة .

أَيَحْسَبُ الإنسانُ أنْ لنْ نجمعَ عِظَامَهُ
بـلى قادرين على أنْ نُسوِّيَ بنـــانَه
الآيتان (٣) ، (٤) من سورة « القيامة » .

الحكمة في تسوية البنان

ذهب (الوليـد بن المغيرة) المخزومي ، الى النبي ﷺ وفي يده عظمة من عظام ميت ، قد تفتت وتآكلت ، ثم قال (متهكماً) : يا محمد ، أترى ان الله يحيي هذه العظام ويبعثها بعدمـا رمت ؟ قال النبي : « نعم يبعثها ، ويبعثك ، ويدخلك النـــار » ثم نزل قوله تعالى :

« أيحسبُ الإنسانُ أن لن نجمعَ عِظَامهُ ، بلى قادرينَ على أن نُسَوّيَ بنانهُ » .

والبنان في اللغة هي (أطراف الأصابع) .

قرأت هذه الآية وتأملت فيها طويـــلًا ، لماذا اختص الله أطراف الأصابع بالذكر ؟ مع ان هناك من اعضـاء الجسم ، ما هو ادق صنعاً ، واكثر تعقيداً من البنان .

إن في تركيب العين ، وتجويف الأذن ، ولفائف المخ ، ما يبدو عند النظرة الأولى ، أبدع واروع من تركيب الأصابع .

ثم اكتشف اخيراً ، ان في تسوية البنان سراً عجيباً ، وهو

ان (بصمات الأصابع) في شخص، لا يمكن ان تتشابه (ابداً) مع بصمات الأصابع لشخص آخر ؛ يعرف ذلك الخبراء في تحقيق الشخصية ، حتى إنهم ليستطيعون تحديد الجريمة ، وضبط فاعلها ، اذا هم استطاعوا ان يضعوا ايديهم على بصمات الاصابع التي خلفها الجاني وراءه ، واليك بعض الحقائق الآتية :

(١) قد يعمد بعض المجرمين الى نزع الجلد من اطراف اصابعهم ، تشويهاً للخطوط الجلدية ، واخفاء لمعالمها ، ولكن سرعان ما ينبت الجلد من جديد ، مشابهاً في تخطيطه للبصمات الاولى ؛ والى هذه الحقيقة العجيبة ، يقول المخترع الكبير (اديسون) رداً على من ينكر وجود الله :

« خذ بصمة ابهامك ، كما يفعل الخبراء في تحقيق الشخصية ، عند اخذ بصمات المشبوهين ، ثم ازل خطوط ابهامك بحرقها بالنار ؛ فمتى نما الجلد ثانية ، تجد ان خطوطه لم تتغير مطلقاً ، عما كانت قبل احتراقه ، وقد (اختبرت) ذلك بنفسي ، حتى تحققته؛ ان هذا سر من الاسرار ، ما فتىء مغلقاً حتى الآن، فإن قلت : ان هذا من عمل الطبيعة ، فإن هذا الجواب ، انما هو تهرب (منك) بذكر كلمة فارغة ، مكان الجواب ؛ ان كلمة الطبيعة ما اقنعتني قط » .

ثم يقول اديسون : « اما جوابي انا ، فهو ان الجلد لم ينبت ثانية ، كما كان اولاً ، بمجرد الاتفاق ، بل ان هناك من وضع رسوم النمو الثاني ، وعني بمطابقته لرسوم النمو الاول ،

من كل وجه ، وانت لا تعلم شيئاً من هذه الرسوم ، واذن فإن (دماغك) لم يشترك في هذا العمل ، وهنا تدخل قوة عجيبة ، وتشترك في العمل ، وانا اعتقد كل الاعتقاد انها تحوك نسيج جلد الابهام ، بمزيد العناية ، مستعينة على رسم التفاصيل الدقيقة بذاكرتها العجيبة » .

***

(٢) في التوائم المتشابهة :

معروف ان الانسان ، ينشأ من اندماج (حيوان منوي) واحد ، في بويضة واحدة ، وبعد هذا الاندماج ، تبدأ الخلية في الانقسام الى خليتين ، فأربع فثمان ، وهكذا تنقسم الى ملايين الملايين من الخلايا ؛ وليس العجب في هذا الانقسام ، ولكن العجيب ايضاً ، ان هذه الخلايا ، تتكون منها اعضاء الجسم المختلفة ، فهناك عظام معضلات ، وهناك رأس ومخ ، وقلب وكبد ، واحشاء مختلفة ، وهذه الأعضاء جميعها قد قيست بمقاييس ، لو اختلفت قليلاً لم تكن الحياة ، ولو لم يراع في الرجلين (مثلا) مفاصل الركبتين ، ولا في الاصابع مفاصلها ، ولا في الايدي مرافقها ، لم يتم نظام الحياة . واعجب من هذا كله ، ان كل جرثومة او خلية ، من هذه الخلايا ، تحمل خصائص الجنس ، وطباع النوع ، واساليب الوراثة ، وخلق الادراك والحواس الظاهرة والباطنة ، (فتبارك الله احسن الخالقين) .

لكن قد يحدث في بعض الاحوال ، ان البويضة الملقحة ، عندما تنقسم الى قسمين ، ان ينفصل القسمان عن بعضها ، ثم

يبدأ كل قسم في النمو منفرداً ، فينشأ في هـذه الحالة ، مخلوقان هما (التوأمان) .

وفي هذا النوع من التوائم ، يكون التوأمان متشابهين تشابها تاما ، من حيث المظهر الخارجي ، والعقليـة ، والجنس ايضا ، فهما اما ذكرين او انثيين ، وهما متشابهان خلقة ، وسلوكا ، وتفكيراً ، وذكاء ، وقـد يصعب التمييز بينهما في جميع مراحل حيـاتهما .

والسبب في ذلك انهما منشقان من بويضة واحـــدة ، وقد تغذيا من (مشيمة واحدة) بل ويشملهما غشاء واحد .

ومما هو جدير بالملاحظة ، ان التوائم المتشابهة رغم تشابهها في كل شيء الا انها تختلف في شيء واحد ، هو (بصمات الأصابع) .

ومن هنا تبدو لنا الحقيقة سافرة ، وهي ان الله (سبحانه) اذا كان قادراً على تسوية البنان ، مع ما في تسويته من الدقـــة المتناهية ، فهو على اعادة غيره من اعضاء الجسم اقدر .

* * *

اما التوائم (غير المتشابهة) وهي تشمل ٧٥ ٪ من الحالات ، فتنتج من بويضتين مستقلتين (او اكثر) ، يلقح كل بويضة (حيوان منوي) مستقل ، فكل جنين يكون مستقلاً عن صاحبـــه من مبدأ الامر ، ويكون لكل جنين (مشيمة خاصة به) ، ولا يتحتم ان يتشابه هذا النوع من التوائم ، إلا في حدود الشبه بين الاخوة غير التوائم ، فقد يكون احدهما طويلاً ، والآخر قصيراً ،

وقد يكون احدهما مليح الوجه ، والآخر قبيحاً ، وقد يكون الاول بديناً ، والثاني نحيلاً ، وقد يكون احدهما ذكياً او كريماً ، والثاني غبياً او بخيلاً ، كما قد يكون احدهما ذكراً والآخر انثى ، او قد يكونان ذكرين ، او انثيين ، فلا رابط بينهما ولا قاعدة ، ولهذا سميت (بالتوائم غير المتشابهة) .

« ويومَ يُحشَرُ أعداءُ اللهِ الى النارِ فهم يوزعون ، حتى إذا ما جاءوها شَهِدَ عليهم سمعهُم وأبصارُهم وجلودُهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لِمَ شَهِدتُم علينا ، قالوا أنطقنا اللهُ الذي أنطق كلَّ شيء ، وهو خلقكم أوّلَ مرّةٍ واليه تُرجعون » .

الآيات (١٩) ، (٢٠) ، (٢١) من سورة « فصلت » .

رأي في الحساب يوم القيامة

يذكر القرآن الكريم في كثير من آياته، أن لكل إنسان كتابا يقرؤه ، يوم القيامة ، وأن هذا الكتاب يسجل على المرء جميع ما صدر منه كما يقول الله في الآية (١١) من سورة الإسراء :

« وكُلَّ إنسانٍ ألزمْنَاهُ طائِرهُ في عُنُقِه ، ونخرج له يَوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابكَ ، كَفَى بنفسك اليومَ عليك حسيباً » .

وكما يقول أيضاً في الآية (٤٨) من سورة الكهف :

« ووضع الكتاب فترى المجْرمينَ مُشْفقِينَ مما فيه ، ويقولونَ : يا ويلتنا، ما لهذا الكتابِ لا يُغادِرُ صَغيرة ولا كبيرة إلا أحْصاها ، وَوَجدوا ما عَمِلوا حاضراً ولا يظْلِم ربكَ احدا » .

***

وقد فهم كثير من الناس ، ان هذا الكتاب ، كالكتب المعروفة ، ورق مكتوب واحرف مسطورة بالمداد ، وان كل انسان سوف يقرأ هذا الكتاب ، ولو لم يكن ملماً بالقراءة ، فان

الله سوف يمنحه القدرة على ذلك .

قد يكون هذا جائزاً ، وما ذلك على الله بعزيز ، ولكنني احسب ان الكتاب سوف يكون على صورة اخرى ، أثبت العلم الحديث صحتها :

فالكتاب كما يكون (مقروءاً) بحاسة العين ، قد يقرأ ايضاً (بحاسة اللمس) كتلك الكتب ، التي اخترعت بطريقة (بريل) ليقرأها العمي ، عن طريق اللمس .

وقد يقرأ الكتاب ايضاً عن طريق (السمع) كهذه الأحاديث ، والألحان والاغاني ، والبرامج ،التي تسجل في مكتبة (الإذاعة) على اشرطة التسجيل ، وهذه تسمى (كتباً) في عرف المذيعين .

ولعل القارىء ، قد شاهد بنفسه كتبا من هذا النوع ، لتعليم اللغات الحية ، عن طريق النطق والسماع .

ومن يدري ، لعله يأتي يوم يستغني فيه الناس عن قراءة الكتب بحاسة العين ، بقراءتها عن طريق الأذن .

ولقد ثبت ان (الصوت) الذي نتحدث به ، لا يفنى ، ولا يتلاشى في الفضاء ، بل ينحاز الى الآفاق البعيدة ، وانه من الممكن علمياً ، اختراع جهاز لاحضار اصوات الأقدمين ، والاستماع الى كلامهم .

***

إذا ثبت هذا فلعله ، عند الحساب يوم القيامة ، سوف يحضر الله اصوات الانسان وما صدر عنه من كلام ، ولعل هذا الكلام

يسجل على (شيء) كما يسجل (الصوت) على صفحة الشريط ، فاذا ما استمع الإنسان الى كلامه لا يسعه الإنكار ، ويكون هذا ، بمثابة المتهم ، يدان امام القضاء ، عندما تستمع المحكمة الى اعترافاته في الشريط الذي سجل عنه ، من حيث لا يدري .

ومن الجائز جداً ، ان تسجل اصوات الإنسان على جلده ، او على جوارحه ، او بعض اعضائه ، وان الاصوات لتسجل الآن على شريط (من البلاستيك) الرقيق في غاية من السهولة ، وارجو من القارىء ان يتدبر قوله تعالى في الآيات (١٩ — ٢٠ — ٢١) من سورة « فصلت » :

« ويومَ يُحشَرُ اعداءُ الله الى النارِ فهم يُوزعونَ ، حتّى اذا ما جاءُوها شَهِدَ عليهم سمعُهم وابصارُهم وجلودهم بما كانوا يعملونَ ، وقالوا لجلودهم لِمَ شَهِدتُم علينا ، قالوا انطقنا اللهُ الذي انطق كل شيءٍ » .

وكذلك احسب ان الإنسان سوف يستعرض تاريخ حياته على طريقة ، اشبه ما تكون باللوحة السينمائية ، فيرى الإنسان نفسه وهو ساع الى الخير ، او ذاهب لاقتراف جريمة ، عندذلك تبيض وجوه ، وتسود وجوه ، ولعل الله (سبحانه) وله المثل الاعلى ، يمحو من هذا الشريط بعض الذنوب التي يتوب الانسان منها ، كما يقطع (الرقيب) بعض الصور الفاضحة ، المخلة بالآداب ، واما الاعمال التي داخلها (الرياء) او اتبعها صاحبها بالمن والأذى ، فربما كانت صورها باهتة مهزوزة ، فيعلم صاحبها انها باطلة لم يقصد بها وجه الله ، وانني لأهيب بذهن القارىء ان

يتأمل جيدا في قوله تعالى ، في الآية الأخيرة من سورة (النبأ):

« يومَ ينظرُ المرءُ ما قدّمتْ يـــداهُ ، ويقول الكافرُ يا ليتني كنتُ ترابا » .

وقوله تعالى في الآية المتقدمة من سورة (الكهف) :

« وَوَجدوا ما عَمِلوا حاضِراً ولا يظلم رَبُّك أحداً » .

وليتأمل القارىء كذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

« انما هي اعمالكم تعرض عليكم » وقوله تعالى « يوم تجدُ كل نفسٍ ما عَمِلتْ منْ خيرٍ محضراً ، وما عَمِلتْ منْ سوءٍ تودّ لو انّ بينها وبينهُ امداً بعيدا » .

وكذلك يشير القرآن الى مثل هذه الصورة من الحساب في الآية (٢١) من سورة (ق) .

«لقد كنتَ في غفلةٍ منْ هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصُرك اليومَ حديد » .

.. وإنَّ يوماً عنْدَ ربِّكَ كألفِ سنَةٍ ممَّا تعدُّون »

الآية (٤٧) من سورة « الحج »

(قُلْ أئنَّكم لتكفُرونَ بالَّذِي خلقَ الأرضَ في يومَينِ وتجعلُونَ لهُ أنْداداً ، ذلِك ربُّ العالمينَ ، وجَعَل فيها رَواسِيَ مِنْ فوقِهَا وبارَكَ فِيهَا ، وقدَّر فيها أقواتَها في أربعةِ أيَّام سوَاءً للسَّائلينَ .)

الآيتان (٨ - ٩) من سورة « فصلت »

القرآن ، ونظرية النسبية

أثبت العـالم الكبير « اينشتين » ان مقاييس الزمن ليست واحدة دائمـاً ، بل هي مسألة (نسبية) صرفة ، فنحن نقسم الزمن على وجه الارض ، تقسيما يتناسب مع سرعة دورانهـا حول نفسهـا ، وحول الشمس ، فاليوم هو الفترة التي تكفي لدوران الارض حول نفسها ، دورة كاملة ، تعود الى مكانهـا الاول .

فإذا فرضنا اننا لم نلبث في مكاننا ، بل انطلقنا في سرعـة تعادل سرعة دوران الارض حول نفسها ، فإنه سيخيل الينا ان الارض لا تدور ، واذن فلن يمر الوقت ، وسنشعر ان حساب الوقت الذي نجري عليه على الارض لم يعد ينطبق علينا ، سنلاحظ ان الزمن قد وقف بالنسبة لنا .

ولنضرب مثلاً يوضح ذلك : اذا انت وقفت الى جانب شريط (سكة حديد) ثم مر بك قطـار ، فإنك ستراه يخطف أمام بصرك كالبرق .

فإذا فرضنا انك ركبت سيـارة ، ومررت بها في محاذاة

القطار ، بنفس السرعة ، ستلاحظ ان سرعة القطار قد تلاشت ، واصبحت تستطيع ان تمد يدك فتضعها على القطار ، كأنه واقف لا يتحرك ، والواقع انه يطوي الارض طياً ، وكل ما في الامر ، انك سرت بنفس سرعته ، فتلاشت هذه السرعة بالنسبة لك .

وهكذا الامر مع الزمن :

فإذا انت انطلقت في سرعة تزيد على سرعة دوران الارض حول نفسها ، تلاشى مرور الايام بالنسبة لك .

واذا استطعت الانطلاق في سرعة دوران الارض حول الشمس ، تلاشى مرور الاعوام بالنسبة لك ، فربما مرت بالارض بضعة اعوام ، وهي ليست في حسابك الا بضع دقائق .

وهنا ننقل اليك ما كتبه العلامـــة « اوجست بيكار » في كتابه « بين الارض والسماء » وقـد تحدث فيه « بيكار » عن امكان الرحلة الى عوالم خارجة عن عالمنا الارضي ، ووصف ما يمكن ان يلقاه الإنسان ، اذا خرج في هذه الرحلة ، معتمداً في وصفه على النتائج العملية التي انتهى اليها في ابحاثه وتجاربه ؛ وهو يؤكد ، بناء على هذه التجارب ، اننا بعد سنوات سنركب تلك القذائف الصاروخية ، التي ظهرت بوادرها في هذه الايام ونعيش بذلك احقاباً من السنين .

***

إذا كان من الممكن ان نخرج من عالمنا الشمسي هذا ، لنقوم برحلة الى عوالم شمسية اخرى ، وانت تعلم ، ان النجوم اللوامع التي تبدو لنا متلألئة ، في صفحة السماء ، مـــا هي في الواقع الا

شموس ، لكل منها كواكبها التي تدور حولها ، واقمارها التي تدور حول الكواكب .

وان اقرب هذه الشموس الينا (سيريوس) وهي تبعد عن عالمنا بعداً ، لا يتصوره العقل ، ويكفي ان تعلم ان اشعة الضوء التي ترسلها (سيريوس) تصل الى الارض بعد صدورها منه (بعشر سنوات)؛ مع ان هذه الاشعة،تقطع مسافة (٣٠٠،٠٠٠) كيلو متر في (الثانية) ، وتبعد عنا على هذا بما يعدل الحسبة البسيطة التالية :

(٣٠٠،٠٠٠×٦٠×٦٠×٢٤×٣٦٥×١٠) كلم

وتصور ايها القارىء نتيجة هذه العملية .

فلو اننا ركبنا في مركب صاروخي ، واستطعنا دفعه بسرعة تقرب من سرعة الضوء ، اي بسرعة تعدل دوران الارض عشرات المرات ، فستكون كل دقيقة تمر بنا في هذا الصاروخ ، بمثابة بضعة اعوام على الارض .

فإذا سرنا في هذه المركبة الصاروخية يوماً واحدا ، ثم عدنا، وجدنا ان الارض قد مر على اهلها عدد عظيم من السنين ، بينما لم يمر علينا الا يوم واحد .

واذا كانت الرحلة الى « سيريوس » تتطلب قرنين ونصف بحساب الزمن على وجه الارض ، فإن هذه المائتين والخمسين سنة ، لن تعادل اكثر من شهر بحسابنا نحن (في الصاروخ)، فإذا عدنا بعد هذا الشهر ،وجدنا ان اجيالاً كثيرة قد انقضت على الارض ، بل وجدنا انفسنا في عالم جديد جداً .

تصور انك تخرج من الارض هذا العام مثلاً ، وتقضي في رحلتك الصاروخية شهراً واحداً ، وتعود لتجد اهل الارض في سنة (٢٢٠٠) اي ان شهراً واحداً من عمرك ، اصبح يعادل قرنين ونصفا من اعمار اهل الارض .

فإذا طالت رحلتك (عشرة اشهر) اصبحت هذه الاشهر العشرة ، معادلة (لألفين وخمسمائة) عام على الارض ، ولو طالت مائة شهر لعدت لتجد ان الارض قد مر عليها (٢٥،٠٠٠) عام .

هذا اذا سار (الصاروخ) بسرعة (٦٥٨٠) كيلو متراً فقط (في الثانية) وهي سرعة بسيطة ، اذا ذكرنا ان الصاروخ ، يستطيع ان يدرك سرعة تعدل سرعة الضوء وهي (١٨٦و٠٠٠) في الثانية الواحدة .

في هذه الحالة سيكون قرن كامل على وجه الارض معادلاً ليوم واحد في الصاروخ .

وعلى هذا فسيكون في امكانك ان تعيش (مليوناً) من السنين ، اذا خرجت في رحلة صاروخية ، زرت فيها بعض الافلاك الشاسعة ، وعدت بعد شهر واحد ، ومن يدري ؟ فربما عدت فلم تجد الارض نفسها ، اذ تكون قد فنيت وفني من عليها .

هذا ملخص ما ذكره ذلك العالم الجليل (بيكار) ذكرته لك ، لتدرك ان هذا الكلام ، ان يكن قد صيغ في (ثوب خيالي) فهو الحق الذي لا مرية فيه .

***

والقرآن يشير الى هذه النسبية المذكورة في اكثر من آية ،

فيقول في الآية (٤٧) من سورة « الحج » :

« وإنّ يوماً عندَ ربّكَ كألفِ سنةٍ مما تعدّون »

ويذكر ايضاً في الآية (٤) من سورة « المعارج » .

« تعرُجُ الملائكةُ والرّوحُ اليهِ في يومٍ كانَ مقدارهُ خمسينَ ألفَ سنة » .

ثم يذكر القرآن يوم القيامة ، فيشير في هذه السورة ايضاً ، الى ان هذا اليوم قريب جداً بالنسبة للحساب الزمني في (العالم العلوي) مع انه قد يكون بعيداً بالنسبة الى الزمن على وجه الارض ، فيقول :

« فاصبرْ صبراً جميلًا ، انهم يرونهُ بعيداً ونراهُ قريباً »

ويذكر القرآن في مفتتح «سورة القمر »، ان يوم القيامة قد اقترب ، وهو قرب نسبي كما علمت ، فيقول :

« اقتربتِ السّاعةُ وانشقّ القمر »

***

ولعلك بعد ذلك تدرك السر، في قوله (عليه الصلاة والسلام)

« بُعثتُ أنا والسّاعةُ كهاتين » واشار باصبعيه السبابة ، والوسطى ، وهو يريد بذلك القرب النسبي لقيام الساعة .

***

وبديهي بعد ذلك ، أن قوله تعالى في الآيتين (٨ - ٩) من سورة «فصّلت » :

(قلْ أ ئنّكم لتكفرونَ بالذي خلق الأرض في يومينِ ، وتجعلونَ له أنداداً ، ذلك ربّ العالمين ، وجعلَ فيها رواسيَ

منْ فوقها وبارك فيها ، وقدّر فيها أقواتها في أربعـــة ايام ، سواءً للسائلين »

ليس المراد باليوم في هـــذه الآيات ، هو اليوم الأرضي ، ولكن المراد هو (الزمن الطويل) كما تقدم لك سابقاً من (نظرية النسبية) وهو الزمن الذي حدث فيه تطور الحياة على وجه الأرض واستمع الى ذلك في قوله تعـــالى في الآية (٢٨) من سورة «النازعات » :

« والأرضَ بعد ذلك دحاها ، أخرجَ منها ماءها ومرعاها ، والجبالَ أرْساها »

وإنك لَتدهش ، لدقة القرآن ، في (ترتيبه الزمني) لحدوث التطورات المختلفة على وجه الارض .

فالانهار ، كما يقول (علماء البيولوجيا) قد أخذت تتكون في العصر الأركي (الحقب الابتدائي) وهي وعوامـــل التعرية الاخرى (الحرارة والبرودة والرياح والامطار) قد بدأت في تكوين الصخور الراسبـــة ، وان ظهور النباتات غير المزدهرة والسرخسيات، كان بكثرة وافرة، في العصر الذي يليه ويسمى الباليوزي (حقب الحياة القديمة) ، واما ظهور سلاسل الجبال ، فكان بعد ذلك .

* * *

هذا ومن المعروف (علمياً) ان الأرض كانت جزءاً من الشمس، ثم انفصلت عنها، وبمرور الزمن، بردت القشرة الظاهرية وتكونت البحار والانهار ، بفعل التغيرات الكيماوية ، ثم نشأت

الحياة اولاً في الماء ، والى ذلك يشير القرآن في الآية (٣١) من سورة « الانبياء » :

« أَولَمْ يرَ الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتْقاً ففتقْناهما وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيّ »

والسماء في لغة العرب « كل ما علاك فأظلك » فسقف البيت سماء ، والشمس بالنسبة لنا سماء والآية تشير الى أن الشمس والارض كانتا قطعة واحدة ثم انفصلت احداهما عن الاخرى ، وهذا عين ما تقوله (النظرية الحديثة) لتكوين المجموعة الشمسية.

* * *

إن بعد الأرض عن الشمس ، يبلغ حوالي (٩٣) مليوناً من الاميال ، وإن الأرض لتقطع دورتها حول نفسها في أربع وعشرين ساعة .

فلماذا لم تقترب الارض من الشمس حتى يبلغ البعد (٨٠) مليوناً ؟ ولماذا لم تبتعد حتى يبلغ البعد (١٠٠) مليون مثلاً ؟

ثم لماذا لم تقطع الارض دورتها حول نفسها في أقل او اكثر من الأربع والعشرين ساعة ؟

هذا سؤال جدير بالبحث والتأمل :

إن الارض لو اقتربت من الشمس قليلاً عما هي عليه ، لاحترقت بفعل الحرارة ، ولو ابتعدت لتجمدت ، بسبب البرودة ، واصبحت في حالتيها لا تصلح للحياة ؛ وكذلك يحدث لو ان الأرض ابطأت او اسرعت في سيرها عما هي عليه .

* * *

وان حجم القمر يبلغ $\frac{1}{50}$ من حجم الارض ، فلماذا كان القمر بهذا الحجم ، ولماذا لم يكن مثلاً في حجم الارض ؟

اننا نعلم ان القمر يحدث في مياه البحر مداً كبيراً ، كالذي يحدث في (بحر المانش) وذلك بفعل الجاذبية القمرية ، فلو ان كوكباً في حجم الارض ، حل محل القمر لزادت قوة المد ، وارتفاع الماء على ما هي عليه خمسين مرة ، ولأصبح ارتفاع الماء نصف ميل ، بدلاً من ثمانين قدماً ، واحر بهذا الارتفاع ان يغمر سائر الارض كل اثنتي عشرة ساعة ، وصدق الله إذ يقول في الآية (٤٧) من سورة طه :

« قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يا موسَى . قال رَبُّنَا الذي أعْطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هدى »

« وَتَرى الجِبالَ تَحْسَبُها جامِدةً وهِيَ تَمُرُّ مرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللهِ الذي أَتْقن كُلَّ شيء »

الآية (٨٨) من سورة « النمل »

موقف الكنيسة
من نظرية دوران الأرض

كان علماء أوربا الى منتصف (القرن الخامس عشر) يؤمنون إيماناً أعمى بنظرية (ارسطو وبطليموس) في ان الارض ثابتة لا تتحرك ، وبأنها مركز العالم ، وبأن الشمس وجميع الأفلاك ، تدور كأجسام تابعة حول الأرض .

هذا النظام (البطليموسي) ظل متبعاً لمدة (الف وخمسمائة) عام ، وبدا كأنه سيظل محتفظاً بقوته الى الأبد ، فأساسه وعماده ، والحقيقة الأولية التي بني عليهـا هي : (ما تراه الحواس التي لا يمكن ان تخطىء) .

هذه الحقيقة الاساسية هي « ان السماء التي فوقنا — كما تبدو لكل من ينظر الى دائرة الافق ، عبارة عن إناء مقلوب تشغل الارض مركزه .

واعتماداً على هذا الأمر البديهي الذي يثبت نفسه بنفسه ، وضع الفلكيون نظريتهم :

« إن الأرض تقف ثابتة في مكانها كملكة خالدة ابدية ، تقدم لها فروض الطاعة ، كل الاجسام السماوية ، فالشمس تدور فوق الارض اثناء النهار ، وتحتها اثناء الليل ، في حين ان النجوم تقوم برحلتها تحت الارض اثناء النهار ، وفوقها اثنـــاء الليل ، وفي كلمات أخرى (ان الكون كرة تقوم بدورة كاملة حول الارض كل اربع وعشرين ساعة) .

وعلى هذه النظرية الخاطئة ، بني الفلكيون آراءهم في الكواكب والأبراج ، وتأثيرها في عالم الارض ، ولجأوا الى السحر والشعوذة في تفسير بعض الظواهر الفلكية (كالكسوف والخسوف) ؛ وكلما بدا أن هناك كوكباً او نجماً خرج عن مداره الصحيح ، عزوا ذلك الى (الروح الحي) لذلك النجم او الكوكب . وفي عام (١٥٤٣) ظهر العالم الجليل (كوبر نيكس) واشتغل استاذاً للفلسفة (بجامعة روما) واعلن للعالم في كتابه — بعد ان لبث حوالي ثلاثين عاماً يدرس نظريته — :

« أن الارض ليست سجينة لا تتحرك ، بل هي عربة دائبة الدوران ، تحملنا معها ، في مغامراتها الابدية خلال الفضاء الشاسع لهذا الكون » .

وقد سخر العلماء ورجال الكنيسة من هذا الرأي ، واتهموا صاحبه (بالهرطقة) والكفر ، وبالمروق في الدين .

* * *

ثم جاء بعد (كوبر نيكس) العالم الرياضي الكبير (جاليليو) وكلما حاول ان يناقش نظرية بطليموس ، ويثبت بالأدلة العلمية ،

أنها خطأ ، صاح فيه الأساتذة ، بالجملة المشهورة (اسكت ، فلقد تكلم السيد « يعنون ارسطو » ولمن في قوله لفصل الخطاب ، فلماذا تتعب أنت نفسك ?) .

ولكن (جاليليو) لم يعبأ بكلام اساتذته ، وظل يواصل البحث ، ويدأب على الدرس ، حتى اخرج للناس كتابه الخالد (رسول النجوم) وفيه يثبت بالادلة العلمية ، فساد نظرية بطليموس ، وقيام نظرية جديدة هي : « ان الارض تدور ، وانها وجميع الكواكب حولها ، ليست إلا جزءاً من المجموعة الشمسية ، تدور حول الشمس ، وبذلك نستطيع ان نفسر نظرية الكسوف والخسوف ، وتعاقب الليل والنهار » .

***

وثارت ثائرة الكنيسة ، واستدعي (جاليليو) للتحقيق معه امام الديوان المقدس ، ولكنه كان مريضاً ، وكتب اطباؤه ، تقريراً بينوا فيه ان سوء حالته ، لا تساعده على الذهاب الى (روما) ، ولكن الرحمة والشفقة كانت منتزعة من قلوب اعضاء الديوان ، فأمروا بالقبض عليه مهما كانت حالته وان يكبل بالسلاسل ، وينقل الى (روما) .

***

وفي يناير عام (١٦٣٣) في صقيع الشتاء ، ترك (جاليليو) فلورنسا ، الى روما ، وهو اقرب الى الموت منه الى الحياة ، وحين مثل امام قضاته ، لم يكن في حالة تسمح له بالدفاع عن نفسه ، لا من الناحية الجسمانية ، ولا من الناحية العقلية .

واستمرت محاكمته ستة أشهر ، وصلته خلالها رسائل تأييد، لا من المفكرين الاحرار فحسب ، بل من عديد من الكاثوليك ورجال الكنيسة .

واخيراً ارغم الرجل ، على ان يضرب بمعتقداته في دوران الارض ، عرض الحائط :

« إني أقسم ويداي على الانجيل المقدس ، ان انبذ نظرياتي الهرطقية السالفة، واني اعترف ان خطئي تسبب عن طموح كاذب ، وجهل تام، واني اعلن واقسم ان الارض لا تدور حول الشمس » .

★★★

وبينما كان اصدقاؤه يقودونه بعيداً عن ساحة المحكمة ، وهو مجهد متعب ، في حالة أشبه بالحمى ، كان يغمغم بين انفاسه اللاهثة المتقطعة « انها رغم ذلك لتدور » .

إن ما ذهب اليه العلامة (كوبرنيكس) في منتصف القرن الخامس عشر ، وما ذهب اليه العالم الرياضي (جاليليو) في القرن السادس عشر ، هو نفس ما ذهب اليه القرآن الكريم منذ (اربعة عشر قرناً) .

❋ ❋ ❋

ورد في القرآن الكريم الآية (٨٨) من سورة النمل :

« وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، صنع الله الذي أتقن كل شيء » .

وهذه الآية كما جاء في كتاب (القرآن ونهاية العالم) تدل على حقيقة واقعة وهي سير الجبال سيراً حثيثاً ، لا يشعر به الانسان،

بل يظنها واقفة في مكانها ، واذا كانت الجبـال تسير ، فالأرض كذلك تسير ، وقد ضرب الله الجبال مثلًا لانها ابرز ما على وجه الارض ، وهذا ما يشير اليه علماء البلاغة من اطلاق الجزء وارادة الكل، كما تقول : رأيت (عمامة تسير) اي رأيت رجلًا يسير ، وهذا دليل على دوران الارض حول نفسها ، كما قال بذلك علماء الفلك الحديث .

* * *

وحينما نشر هذا البحث في بعض الجرائد المصرية ، كتب الي الاستاذ (عبد الرحمن العيسوي)صاحب كتاب (لماذا انا مسلم ؟) الكلمات الآتية :

« إنه منذ خمسة عشر عاماً سوياً ، قرأت كتاباً هو — مع الأسف — من المقررات الازهرية ، وكأن العلماء الأجـلاء لم يقرءوه ، فلم يعرفوا قوله عن (دوران الارض) حول نفسها ، وبراهينه الرياضية التي قدمها لاثبات نظريته ، وهو كتاب (شرح السيد على المواقف) لعضد الدين الايجي (نسبة الى بحر ايجـة ، وذلك في صفحة (٤٠٤) من الكتاب .

ثم يقول الاستاذ (العيسوي) : واذكر انني حسبت يومئذ تاريخ وفاة الرجلين (عضد الدولة، وكوبرنيكس) فاذا برجلنا المسلم يسبق صاحبه بمائة وخمسين عاماً .. وهـــذا ولا ريب ، فخر كبير ، لعلماء المسلمين ، وشكراً للأستاذ العيسوي

واضيف الى ذلك أن العالم العربي (محمد بن احمد البيروني) قد قال بهذا الرأي ايضاً .

وفي قوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة «يونس»:

« حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً او نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ».

ان الله لم يشأ ان يحدد الوقت الذي تكون فيه نهاية العالم، لان العالم لا يغشاه ليل في وقت واحد، ولا يصيبه كله نهار في وقت واحد، والحديث هنا عن الارض كلها، وهو حكم عام يلزم لصحته عدم التحديد.

ولقد أرانا القرآن الكريم ان شروق الشمس لا يحدث في وقت واحد، على اجزاء الارض المختلفة كما يقول في الآية (٤) من سورة «الصافات»:

« إن إلهكم لواحد. رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ».

وهذا يدل على ان الشمس لا تشرق على الارض كلها دفعة واحدة بل تختلف اوقات شروقها.

واختلاف أوقات الشروق يدل على دوران الارض حول نفسها، وعلى ان الليل والنهار هما نتيجة لهذه الحركة، كما ان وجود الليل والنهار في وقت واحد على الارض لا يتأتى الا اذا كانت الارض كروية.

«سَبحَانَ الَّذي أَسْرى بعَبْدِهِ لَيْلاً من المسْجِدِ
الحَرام الى المَسْجِدِ الأَقْصَى الذي باركْنَا حَولَهُ لِنُرِيَه من
آياتِنَا إنه هُوَ السَّميعُ البَصِيرُ »

(الآية الأولى) من سورة « الإسراء »

الإسراء والعلم الحديث

في السنة (الحادية عشرة) من (البعثة) اسرى الله بنبيه (محمد) صلى الله عليه وسلم ، من المسجد (الحرام) بمكة ، الى (المسجد الأقصى) ببيت المقدس ، وطوى (النبي) هذه المسافة الشاسعة ، التي كانت تقطعها الإبل (في شهر) طواها في فترة وجيزة من الليل ؛ وهناك رأى من آيات ربه الكبرى ، وجمع الله له ارواح الانبياء ، فصلى بهم في بيت المقدس ، ثم (عرج) به (ﷺ) الى السموات العلا ، فرأى من آيات ربه الكبرى ، واوحى الله الى عبده ما أوحى ، وفرض عليه وعلى امته خمس صلوات في اليوم والليلة ، والى هذه القصة ، أشار القرآن في الآية الأولى من سورة الإسراء بقوله :

« سُبحانَ الـذِي أَسْرى بعبْدِهِ ليلاً من المَسْجِدِ الحرامِ الى المسجِدِ الأقْصى الـذِي باركـْنَا حوْلَهُ لنريَهُ من آياتِنَا إنهُ هوَ السّميعُ البصيرُ »

ولما رجع النبي الى (مضجعه) أخبر الناس بما رآه ، فصدقه

كل من آمن به إيماناً قوياً ، وكذّبه كفار قريش ، وارتد كثير ممن في قلوبهم مرض عن الاسلام .

(١) جاء في كتب السير ، ان النبي أخبر بمسراه السيدة (أم هانىء) بنت ابي طالب ، وكان مضجعاً في بيتها ، وانه عزم ان يخرج الى قومه ليخبرهم بذلك ، فصدقته ، ولكنها تعلقت بردائه وقالت : انشدك الله يابن عمي ، ان لا تحدث بهذا قريشا ، فيكذبك من صدقك ، وينكرون مقالتك ؛ فضرب النبي ، بيده على ردائه فانتزعه منها ، وانتهى (رسول الله) الى نفر من قريش ، فيهم (المطعم بن عدي) ، وأبو جهل بن هشام ، وقعد النبي (حزيناً) لأنه عرف ان الناس ، سوف تكذبه ، فسأله ابو جهل (مستهزئاً) يا محمد : هل كان من شيء ؟ قال : نعم ، اسري بي الليلة ، قال : الى أين ؟ قال : إلى (بيت المقدس) ، قال : ثم اصبحت بين ظهرانينا ؟ قال (النبي) : نعم ؛ قال : أرأيت إن دعوتُ قومك ، اتحدثهم بما حدثتني ؟ قال نعم ، فصاح ابو جهل : يا معشر قريش ، يا بني كعب بن لؤي ، فانفضت إليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا إليهما .

فقال رسول الله (ﷺ) إني أسري بي الليلة الى بيت المقدس ، فبعث لي رهط من الانبياء ، منهم ابراهيم وموسى وعيسى .

فلما سمعت قريش ذلك ضجت ، وأعظمت ذلك الاسراء ، وصار بعضهم يصفق وبعضهم يضع يده على رأسه تعجباً ، وقال (المطعم بن عدي) : إن امرك قبل اليوم ، كان امراً يسيراً ، لكن قولك اليوم يشهد أنك كاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل

الى (بيت المقدس) مصعدا شهرا ، ومنحدرا شهرا ، ثم تزعم انك اتيته في ليلة واحدة ؟ واللات والعزى لا أصدقك .

* * *

(٢) وسعى رجال من المشركين الى (ابي بكر) فقالوا : هل لك الى صاحبك ؟ يزعم أنه اسري به الليلَ الى بيت المقدس ، قال (ابو بكر) : أوقد قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : والله لئن كان قال ذلك ، فقد صدق ؛ فما تنكرون من قوله ؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الارض في ساعة من ليل او نهار فأصدقه ، وهذا أبعد مما تعجبون منه .

ومن ذلك اليوم لقب (ابو بكر) بالصديق ، ونزل في حقه قوله تعالى في (سورة الزمر)

« والذي جاء بالصِّدقِ وصدَّقَ به أُلئِكَ هم المُتَّقُون »

* * *

(٣) لقد كانت قريش تعلم ان (محمداً) لم يدخل بيت المقدس قط ، فقال المطعم بن عدي : يا محمد صف لنا بيت المقدس إن كنت قد رأيته .

قال النبي (فكوبت كرباً شديداً لم اكرب مثله) ، فجلى الله لي بيت المقدس ، فطفقت اخبرهم عن آياته) وفي رواية (فرفع لي المسجد حتى نظرت اليه) .

ثم اخذ النبي يصفه فكان يخبرهم بما يعرفونه عنه ، وابو بكر يقول له : (صدقت صدقت) . فلما فرغ النبي من (الوصف) قالت قريش : صدق (الوليد بن المغيرة) في قوله : (إنك لساحر) .

وإلى هذه القصة اشار صاحب الهمزية (البوصيري) بقوله :

فطوى الارض سائراً والسموا
ت العلى فوقهــــا له إسراء

فصف الليلة التي كان للمختا
ر فيهـــا على البراق استواء

وترقى بهـا إلى قاب قوسيـن
وتلك السيـــادة القعساء

رتب تسقط الأماني حسرا
دونها ما وراءهــن وراء

* * *

ولقد كانت (قصة الإسراء والمعراج) في العصر الحديث ، قذى في عين كثير من العلماء الماديين ، وأسطورة من اســـاطير الأولين ، التي حفلت بها أقاصيص الشرق ، ذات الخيـال المجنح الجامح ، ويجب (في زعمهم) ان ترد هذه القصة ، الى مثل كتاب (الف ليلة وليلة) وسيرة (الملك سيف بن ذي يزن)

لقد كانوا يستبعدون على محمد ، أن ينتقل من المسجد الحرام في مكة ، الى المسجد الاقصى ، في بيت المقدس ، فما بالك وهو يدعي (ايضاً) انه عرج به الى السماء ...

ولكن مهلًا :

فها هو العلم الحديث ، يثبت بالدليل القاطع ، ان انتقال جسم من مكان الى مكان ، في لحظة وجيزة ، قد بات قريباً من حيز الامكان ، وما كان الله ليعجز عن شيء توصل اليه الإنسان .

ورد في بعض الصحف : انه من الممكن تحويل المادة الى طاقة ثم تحويل الطاقة الى المادة مرة اخرى ؛ وقد ثبت من الناحية العلمية أنه يمكن نقل صخرة من مكانها في القاهرة ، الى لندن عن طريق (اللاسلكي) في ٦٠/١ من الثانية الواحدة ؛ وبالغ العلماء في هذا فقالوا : إنه يمكن ايضاً نقل الإنسان من القاهرة الى لندن في مثل هذا الوقت، وما علينا إلا ان نصنع آلة (للارسال) واخرى (للاستقبال) تقوم الاولى ، بتحويل كتلة الصخرة الى طاقة ، وتقوم الثانية ، بتحويل الطاقة الى مادة ، فتصل الصخرة (الى لندن) بهذه السرعة العجيبة .

***

وجاء في جريدة اخبار اليوم المصرية ، الصادرة في يوليه عام ١٩٥٧ : تنبأ اليوم (وليام لير) رئيس مجلس ادارة احدى الشركات الصناعية ، لأجهزة الطائرات الدقيقة ؛ بأنه سيأتي اليوم الذي يستطيع فيه الانسان ان يسافر عن طريق تحويله الى ذبذبات ، وارسالها بطريقة (الكترونية). وقد ذكر (لير) ان العلماء يعرفون اليوم ، ان المادة تتكون من ذبذبات ، والذبذبات يمكن ان ترسل عن طريق الأسلاك ، او عن طريق الموجات الالكترونية (كالصوت والصور) .

ومن ثم فان الجسم البشري ــ الذي يدخل في نطاق المادة ــ يمكن ان ينقسم الى ذبذبات تنتقل بطريقة (الكترونية) الى اي مكان في العالم .

ومضى مستر (لير) يقول : انني اعتقد انه قبيل ان يتحقق

السفر الى الكواكب وربما يتمكن (البعض) من ابتكار طريقة ، لتحويل المادة الى ذبذبات ، ونقلها بواسطة الاسلاك او الموجات ، ثم يعاد (تجميعها) في نقطه الوصول ، وسيتم السفر بهذه الطريقة خلال ثوان معدودات .

***

وأما قوله (عليه الصلاة والسلام) « فرفع لي المسجد حتى نظرت اليه (أو) فجلى الله لي (بيت المقدس)... فهي ظاهرة علمية تعرف (بالتلفزة) او تعرف بظاهرة (الجلاء البصري) .

فما هي التلفزة ؟

جاء في مجلة (المقتطف) ان (التليبثي) كلمة مؤلفة من (تلي) ومعناها (بعد) و (بثي) ومعناها (شعور) اي (الشعور عن بعد) .

ويراد بها : حالة نفسية يمتاز بها بعض الناس ، فيدرك الواحد منهم ما يفكر فيه الآخر من غير كلام او إشارة ، ولو كان البعد بينهما شاسعاً .

وتعليل ذلك كما يقول (السير وليم كروكس) العالم الطبيعي المشهور ، هو اننا نعيش في عالم كله اهتزازات ، (فالصوت) اهتزاز في الهواء ، (والحرارة والنور والكهربائية) اهتزاز في الاثير ، (وجواهر) المادة لا تنفك عن الاهتزاز ، فلا عجب اذا كانت الادمغة تهتز اهتزازاً خاصاً بها ، ويشعر بعضها باهتزاز البعض الآخر ، وقد يكون هذا الاهتزاز اسرع من اهتزاز النور .

وحينما توفي (النجاشي) ملك الحبشة ، (وتقول كتب التاريخ انه اسلم) قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في (المدينة) يصلي على نعش النجاشي (وهو في بلاد الحبشة). وقد اجاز العلماء الصلاة على الغائب ، من اجل هذه الظاهرة التي قام بها رسول الله (ص) وهي ما تعرف عن العلماء بظاهرة (الجلاء البصري) فما هي هذه الظاهرة ؟

« انها قدرة الانسان على الرؤية بشكل يخالف العرف ، وبدون استعمال الحواس العادية ، فيخترق بصره الحجب المعتمة ، ويرى ما وراءها متعدياً حدود الفضاء والزمن ».

ومن قبيل هذا قصة (سارية) وهو قائد من قواد المسلمين ، في بلاد الروم ، على عهد (عمر بن الخطاب) .

ذكرت بعض كتب التاريخ : أن عمر بن الخطاب ، كان قائماً يخطب على منبر المدينة وحوله الصحابة يستمعون اليه ، فقال عمر : والله لكأني أرى (سارية) وقد أحاطت به (الروم) من كل جانب ، وليس له ملجأ الا الجبل ، ثم صاح : يا سارية ! الجبل .. (ثلاثاً) .

أما سارية فانه قال : والله لكأني أسمع صوت امير المؤمنين عمر ، وهو يأمرني ان انحاز الى جانب الجبل .

ونفذ سارية امر امير المؤمنين ، وبذلك نجت جيوش المسلمين من خطة كانت قد اعدت للقضاء عليهم قضاء مبرما .

* * *

وذكر كتب « السير » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

كان قد أرسل جيشاً الى « مؤتة » وهي مركز ستراتيجي هام لبلاد الروم ، وأمّر على هـذا الجيش « زيد بن حارثة » وأوصى بأنه اذا أصيب زيد فالامير « جعفر بن ابي طالب » فان اصيب فالأمير « عبد الله بن رواحة » الشاعر الانصاري المعروف . ولما وصلوا الى هناك ، وجدوا أن الروم قد حشدوا لهم «مائة وخمسين الفاً» فماذا يفعل « ثلاثة آلاف من المسلمين » بجانب هـذا البحر الخضم من جيوش الرومان ؟

* * *

وعقد القواد المسلمون مؤتمراً حربياً ، وتشاوروا فيما بينهم ، أيقدمون على القتال وفيه الفناء المحقق ؟أم ينسحبون . ثم يطلبون من المدينة مدداً آخر ؟

وخطب فيهم عبدالله بن رواحة ،متحمساً اشد ما يكون الى القتال ، ثم قال : إننا لم نخرج الى مثل هذا الموطن إلا لنموت في سبيل الله ، ولن نتراجع مهما كانت نتيجة المعركة . واخـيراً استقرت الآراء على القتال ، واختلط المسلمون بأعدائهم ، فكانوا كالشعرة البيضاء في الثور الاسود، وقاتل (زيد بن حارثة)حتى استشهد ، فأخذ الراية (جعفر بن ابي طالب) وخاض بجيشه جموع الاعداء ، حتى قطعت يده اليمنى ، فأخذ الراية بيده (اليسرى) وظل يقاتل حتى قطعت ايضاً، فأخذ الراية بعضديه،حتى تناوشته الرماح ، وتناولته السيوف من كل جانب ، فخر صريعاً بعد ان ضرب (للقادة) اروع مثل للبطولة .

وتسلم القيادة بعده (عبدالله بن رواحة) فقاتل حتى استشهد ،

وكان النهار قد ولى فتحاجز الفريقان .

اما المسلمون فقد اجمعوا امرهم، واتفقوا على ان يتولى القيادة (خالد بن الوليد)، وكان في هذا الوقت جندياً يعمل تحت قيادة هؤلاء الأمراء الثلاثة .

ورأى خالد ان مواصلة القتال ، ليس تحته طائل إلا الفناء المحقق ، وان من الخير وضع (خطة) للانسحاب ، والاحتفاظ بالجيش سليماً ، الى معركة أخرى ، فلما اصبح الصباح غير نظام الجيش ، وجعل الجنود بالعرض ، واخذ يضرب الرومان وينسحب ، وظن الروم ان الإمدادات تتوالى على المسلمين ، فلم يتبعوهم .

***

وهذا بلا شك عبقرية من عبقريات خالد في فن القيادة ، فإن القائد المنتصر ليس اعظم شأناً ، من القائد الذي يعمل على ان يبقى جيشه سليماً ، ولو ادى ذلك الى انسحابه ، ليواصل القتال في ظروف ملائمة يضمن فيها النصر .

وهكذا اثنى كبار القادة العسكريين ، على براعة (القيادة المصرية) في انسحاب الجيش المصري من (سيناء) ايام الاعتداء الثلاثي الغادر على مصر .

***

وعن طريق (الجلاء البصري) استطاع النبي (عليه الصلاة والسلام) ان يرى هذه المعركة ، وان يبصر مصارع الشهداء ، وان يحدث الصحابة وهو على المنبر بكل ما حدث .

ثم نظر (عليه السلام) الى اعلى وقال: «وعليكم السلام »، لقد رأيت جعفر بن ابي طالب في ملأ من الملائكة ، يطير بجناحين ، فألقى عليّ السلام ، فرددت عليه .

ومن هنا سمّي (جعفر بن ابي طالب) بجعفر الطيار ، لأن الله ابدله ، بيديه اللتين قطعتا في سبيل الله (جناحين) يطير بهما في الجنة .

« يا معشرَ الجنِّ والإنسِ إنِ اسْتَطعْتُمْ أَنْ تَنْفَذوا من أَقْطَارِ السَّموات والأرضِ فانْفـُذُوا ... لا تنفُذُونَ إلا بِسُلْطَـان »

الآية (٣٣) من سورة « الرحمن »

غزو الفضاء [1]

في اليوم الرابع من شهر اكتوبر عام (١٩٥٧) سجل الانسان انتصاره الأول ، على الفضاء ، وأطلقت روسيا (قمراً صناعيا) يدور حول الأرض ، في دورات منتظمة ، ولن تمضي سنوات قليلة حتى يكون الإنسان قد تحكم في الفضاء ، واستطاع السفر الى القمر الحقيقي ، وغيره من الأفلاك ، في بساطة ويسر .

إنه الإنسان الذي جعل الله له عقلاً أقوى من الفضاء .

والقمر الرومي الذي اطلق في هذا التاريخ ؛ كروي الشكل وقطره (٢٢) بوصة ، حوالي (٥٥) سم ، ووزنه حوالي (٩٠) كيلوجراما .

ويسير في سرعة قدرت بـ (١٨) الف ميل في الساعة ، حوالي (٣٠ الف) كيلومتر ، ويدور حول الارض على ارتفاع

---

(١) اطلق الروس قمراً صناعياً ثانياً يفوق الأول حجماً ووزناً وأجهزة ، وفيه رائدة الفضاء الأولى الكلبة (لايكا) ، وسوف يقوم الروس في الأيام المقبلة باطلاق قمرهم الثالث . أما الولايات المتحدة الأميركية فقد حاولت أن تطلق القمر الثاني ففشلت ثم أعلنت عن نجاحها في إطلاق قمر جديد .

أقصاه (٩٠٠) كيلومتر .

به جهاز إرسال قوي يرسل إشارات تتضمن معلومات دقيقة تسجلها الاجهزة الحساسة التي يحملها .

والقمر الصناعي يقطع دورته حول الارض مرة كل (٩٥) دقيقة تقريباً .

ذكر الدكتور (احمد زكي) في مقال له (بمجلة المصور) :

« ان هذا القمر الذي اطلقوه فجرى (وعلى سنة الله جرى) لا شك قد فتح عصراً جديداً مليئاً باحتمالات اخرى جديدة ، وهو فتح باب السماء لخلائق ، من بشر وغير بشر ، ما عرفت غير الأرض داراً ، وما عرفت غير ترابها موطناً ، فهي بالارض تقيدت بقيد غير منظور ، أشد من قيد من الحديد واثقل .

والآن آن لهذه الخلائق ان تحطم القيد ، وتخرج من هذا الباب الذي انفتح في السماء ، ويلذ لها ان تخرج ولو الى الموت .

اليوم قمر ، قطره شبران ، اطلقوه حول الارض فدار ، وغداً يطلقون قمراً قطره متران الى (قمر الارض) قمر الطبيعة ، قمر الله ، (وكلنا وكل ما في الارض والسماء ، إنما هو من الله والى الله) فيدور حوله ، ثم يعود اليناوتركبه الآلات ، ثم يركبه الإنسان .

وسوف يرتطم بالقمر ، بين جباله ، ووديانه ، ويرتطم من يحمل من اناس ، وما الذها ارتطامة وامتعها ، وما اسعد حظ اول إنسان يكون له في ارض القمر قبر .

ومن بعد القمر سوف يغزو الإنسان (المريخ) ومن بعد المريخ (الزهرة) ثم لا يدري احد ماذا يكون وراء ذلك ،

انه الغيب يشف للانسان شيئاً فشيئا » .

***

وقد صرح العلماء الأميركيون المشتركون في المؤتمر الفلكي المنعقد في (برشلونه) عام (١٩٥٧) بأن العلماء الروس يستعدون للسفر الى القمر ، خلال السنوات الثلاث المقبلة ، وانهم معنيون جداً ، بالاستفادة من (المخ الألكتروني) حتى يمكن الاعتماد عليه في (سفن الفضاء)التي يعتزمون إرسالهـــا للدوران حول القمر ، ثم العودة ثانية الى الارض ، بفضل ذلك«المخ» . فإذا ما انتهوا من دراساتهم ، في هذا الميدان ، فإن الطريق سيكون قد مهد تماما لارسال سفينة من سفن الفضاء الى القمر ، لتهبط على الجزء المظلم منـه ، وهو الجزء الذي لا يراه سكان الأرض على الاطلاق .

***

وفي رأيي ، ان اكتشاف الكواكب ، وغزو الانسان للفضاء إنما هو بشير بإيمان البشرية جمعاء ، وقد بات وشيكا ، ذلك اليوم الذي يكتشف العالم فيه ، دقائق الكون ، وأسرار الحياة فيصبح العالم كله مؤمنا بالله .

إنه كلما تعمق الانسان في فضاء الله الواسع، وارتقى بحواسه الى ملكوت السموات والارض ، فسوف يجد هناك قدرة الله وسلطانه وتدبيره ، وسوف تصغر في عينيه هذه الارض (تلك الذرة الحقيرة المنتثرة في الفضاء) . وقد اشار القرآن الى هـــذا المعنى في الآية ٣٣ من سورة «الرحمن »فقال :

« يا مَعشرَ الجن والانس إن استطعتم ان تنفُذوا من أقطار السموات والارض فانفُذوا لا تنفُذون إلاّ بسلطان » .

* * *

ثم لنا ان نتساءل : هل هناك في رحاب السموات الواسعة ، ارضون غير ارضنا هذه ؟ وإذا كانت فهل ثمت بها حياة ؟

القرآن يجيب في صراحة عن السؤال الأول فيقول في الآية الأخيرة من سورة (الطلاق) :

« اللهُ الـّذي خلَقَ سبعَ سموات ومِنَ الأرض مثلَهُنّ ، يَتَنزّل الأمر بَينَهُنّ ، لتعلَموا أن الله على كلّ شيءٍ قدير وأن الله قدْ أحاط بكل شيءٍ علما » .

* * *

إن الكواكب السيارة في مجموعتنا الشمسية وهي (عطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والمشتري ، وزحل ، وارانوس ، ونبتون وبلوتو) ارضون مثل ارضنا ، وان اختلفت في قليل او كثير من حيث ظروفها الطبيعية .

* * *

اما عن احتمال الحياة في هذه الكواكب ، فهو سؤال يصعب الإجابة عنه ، نظراً لأن المقربات الفلكية ، والمراقب ، لم تبلغ من الكفاية درجة نستطيع ان نرى بها الحياة على سطح هــــذه الكواكب ، وما يقال عن وجود الحياة او عدمها إنما هو من قبيل الحدس والتخمين .

* * *

وقد ذهب كثير من العلماء الى ان الحياة محتملة على سطح المريخ ، وانه من الممكن ان يكون مسكوناً بمخلوقات وهبت العقل والذكاء ، وقد ايدت هذه النظرية بعض الوقائع العجيبة التي لوحظت خلال السنوات الاخيرة.

ذكر الأستاذ (عبد الحميد سماحة) في كتابه « في اعماق الفضاء » :

ان الاستاذ « لويل » لاحظ على سطح المريخ ، شبكة من قنوات هندسية الشكل ، تمتد آلاف الاميال وهي متقاطعة في نقط كبيرة ، ويتغير مظهرها مع تعاقب الفصول على المريخ ، فتكون اكثر وضوحاً، عند ذوبان الثلوج في « القلنسوة القطبية » واستنبط من ذلك ان هذا عمل أجناس ذكية تسكن سطح المريخ ، صنعت هذه القنوات ، لأعمال الري عند مناطقه الاستوائية ، وانه حيث توجد نقط التقاطع الكبيرة يكثر عدد السكان .

غير اننا نجد عالماً آخر هو الاستاذ (برنارد) يستبعد ان تكون على ظهر المريخ حياة » .

***

واعجب ما في هذا الموضوع ، ان انفجاراً غامضاً حدث في المريخ عام ١٩٤٩ ، وقد لاحظ هـذه الظاهرة فلكي (ياباني) مشهور اسمه (تسونيو ساهيكي) وقد احدث هذا الانفجـار ضوءاً ساطعاً ، خـلال عدة دقائق ، ثم تكونت سحابة رمادية مضيئة تميل الى الاصفرار بلغ ارتفاعهـا (٦٤) كيلومتراً ، وقطرها (١١٢) كيلومتراً .

وبعد ان استبعد العالم الياباني عدة افتراضات ، رأى ان المريخ كان مسرحاً لانفجار ذري ، فمثل هذا الانفجار العنيف لا يمكن ان يكون له غير احـــد سببين ، ثوران بركاني ، او انفجار ذري ، فإذا كان التفسير الثاني صحيحا ، فمعنى ذلك ان الانفجار قد احدث بوساطة مخلوقات على درجـــات كبيرة من الذكاء ، ولقد كان الانفجار الذي حدث اشد من انفجـار قنبلة هيدروجينية .

ثم يقول العالم الياباني ، هناك ثلاثة احتمالات :

اولاً ـ ان سكان المريخ هم الذين احدثوه .

ثانياً ـ ان جنساً آخر جاء من كوكب آخر امكنه ان يضع قدمه في المريخ .

ثالثاً ـ ان رحالة في الفضاء خارج مجموعتنا الشمسية استخدموا المريخ كقاعدة للعمليات خلال مراقبتهم لكوكبنا الأرضي .

***

لقد ثبت من المباحث الحديثـة ، أن على سطح المريخ وفي جوه حرارة وماء واوكسجينا ، وهي الشروط اللازمة للحياة ، وقد أيدت المباحث القائمة على التصوير الضوئي ، والارصاد بالعين المجردة ، ان الأحوال اللازمة للحياة لا تختلف كثيراً في جو المريخ عنها في جو الارض ، ومرقب (بالومار) الضخم الجديد بولاية (كاليفورنيا) وهو يعتبر اضخم مرقب واحدثه في العالم ، وسوف يمكن الراصدين من تصوير عوالم فلكية تبعد عنا مليون سنة ضوئية (والسنة الضوئية هي المسافة التي يجتازهـا الضوء في سنة

كاملة بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية) .

هذا المرصد خليق ان يكون له شأن كبير في تحقيق بعض هذه الآراء المتفاوتة في احتمال الحياة على سطح المريخ .

ولعل اكبر المباحث شاناً في هذا الصدد قياس الحرارة في جو المريخ قياساً دقيقاً قام به الدكتور (كوبلنتز)، بعد ما استنبط اداة دقيقة لذلك تدعى « الترموكبل » فوجد ان درجة الحرارة على سطح المريخ تبلغ ظهراً حوالي «١٥» درجة بمقياس « سنتغراد » وهي مثل الحرارة في جو « بيروت » ظهراً في ايام الشتاء ، وهذه النتيجة تخالف رأي العلماء سابقاً ، إذ كانوا يظنون ان درجة الحرارة في جو المريخ لا ترتفع عن درجة الصفر .

واذا نظرنا الى المريخ بمرقب ضخم راينا على سطحه بقعـا وخطوطا ، وقد علم من عهد السر « وليم هرشل » انه اذا جاء فصل الشتاء في المريخ تكونت على كل من قطبيه بقعـة بيضاء كبيرة ثم تضيق رويداً رويداً بمجي فصل الصيف ؛ إن لم تزل تماماً ، ويظهر بقياس التمثيل بين الارض والمريخ ، ان فيه ماء وان هذا الماء يجمد ويصير ثلجاً وجليداً عند القطبين في فصل الشتاء ثم يعود ماء في فصل الصيف .

اما الخطوط التي ترى على سطح المريخ فظن اولاً انهـا ترع صناعية للري واستدل بها الاستاذ « لويل » على ان صانعيها قد بلغوا درجة عالية من الارتقاء العقلي ومعرفة الاصول الهندسية ، والاستاذ « لويل » هذا هو القائل : انه من الثابت تقريباً وجود أحياء عاقلين على سطح المريخ وانهم يحاولون التخاطب معنا .

غير ان مباحث الاستاذ «انطونيادي» بمرصد مودون بالقرب من باريس ، ومباحث علماء الفلك بمرصد جبل « ولسن » ايدت القول بأن هذه الخطوط تدل على وجود خضرة على سطح المريخ ، فهي تؤكد وجود احياء نباتية على سطحه ولم تزد ، ومن المعروف ان النبات يكون عادة مصحوبا بوجود حيوانات من المراتب الدنيا.

***

فاذا لم نجد في سيارات النظام الشمسي سيارا يرجح وجود اشكال الحياة الراقية على سطحه افلا يرجح ان نرى حول ، ملايين الملايين من النجوم المنشورة في رحاب الفضاء سيارات يحتمل ان تتوافر فيها بيئة مواتية للحياة ؟ قد يكون من التهور انكار وجود الحياة في مكان آخر غير الارض ، والزعم بان الله لم يعط الحياة في خلق الانسان الا على الارض دون خلقه في مكان آخر من هذه الرحاب الفسيحة .

يقول الاستاذ «دونالدمنزل » مدير مرصد جامعة «هارفرد»: ان كل شمس منفردة من ملايين الشموس في رحاب الفضاء ، تحتوي في طبيعتها على ما يمكنها ان تكوّن سيارات تدور حولها، وإذن فعدد السيارات في هذه الرحاب يفوق الحصر ، وإن عجزت اجهزة الرصد التي بين ايدينا عن تبين واحد منها خارج النظام الشمس ، وبقياس التمثيل لا مفر من القول ، بأن ما حدث على الارض من توافر احوال مواتية لظهور الحياة على سطحها ، خليق ان يحدث على سطوح عدد كبير من السيارات الاخرى . اما ما يحدث بعد ان تظهر الحياة عليها وكيف تتطور

وهل تنتهي الى احياء كالناس على الارض ، فأمر لا يزال في ضمير العلم (١) .

فإذا نحن جاوزنا مجموعتنا الشمسية هذه الى ملايين النجوم التي توجد في ملايين الجزر الكونية ، المنتثرة في رحاب الفضاء وكل نجم منها انما هو شمس مثل شمسنا هذه ، ولها ايضاً اقمارها وكواكبها ، فهل هناك اجناس اخرى تسكن في هذه الكواكب؟ ام ان الحياة قاصرة على كوكبنا الارضي فحسب؟

يقول (الدكتور كارل فين فيزاكر) وهو عالم فلكي وطبيعي معروف في جامعة شيكاغو :

« إن هناك مليارات ومليارات من الكواكب التي قد يكون لها ايضاً توابعها التي تدور حولها ، فلماذا لا يكون على هذه الكواكب ، كما هي الحال على الارض ، حياة حيوانية واخرى نباتية » ؟

* * *

إنه لمن الغفلة والظلم ان نحكم بأن الله تعالى لم يخلق خلقاً إلا في ارضنا ، فلا ملائكة ولا إنس ولا جن إلا فيها ، وان الله « سبحانه » يقول « ويَخْلُق ما لا تعلمون . وما أُوتيتُم من العلم إلا قليلا » .

---

(١) راجع كتاب (آفاق لا تحد) للدكتور فؤاد صروف .

وَضَربَ لنا مثلاً ونَسِي خَلْقهُ ، قالَ من يُحيي العِظَامَ وهِي رَميمٌ . قلْ يحييها الذي أنشأَها أوّلَ مَرةٍ وهو بكل خلقٍ عليم .

الذي جعلَ لـكم مِنَ الشجَرِ الأخْضَرِ ناراً فإذا أنتم منـه توقِدون .

أَوَ ليسَ الذي خلقَ السّمواتِ والأرضَ بقـادرٍ علَى أنْ يخلُقَ مثلَهم ... بلَى وهو الخلاّقُ العَليم .

إنمّـا أمره إذا أرادَ شيئـاً ان يقول له : كُنْ فيكون !

فسبحان الذي بيَدهِ ملكوتُ كل شيءٍ واليه ترجعون .

الآيات الأخيرة من سورة (يس)

الشجر الأخضر

« الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا أنتم منـــه توقدون » .

إن المعاني البليغة التي تنطوي عليها هذه الآية الكريمة ، لتبلغ حداً من الاعجاز يقف امامه العقل البشري حائراً مشدوهاً .

إن هناك سراً هائلًا يكمن في هذه الكلمات القصـار ، كما تكمن تلك الطاقة الهائلة في ذرة من ذرات (اليورانيوم) عند انشطارها ، أو في ذرات (الايدروجين) الخفيفة عند اندماجها.

ذكر الدكتور (صروف) في كتابه (آفاق لا تحـد) : أن ضياء الشمس هو اغنى موارد الطبيعة وأزخرها بالطاقة ، وما زال الانسان ينتفع بطاقة الشمس ، منذ ان انتصب على قدميـه انسانا ، فهو يأكل طعاما صنعته له النباتات الخضر بفعـــل ضياء الشمس سواء اكان هذا الطعام نباتا او لحم حيوان .

وهو يحرق الخشب ليطبخ أو ليصطلي ، فاذا هو يطلق بـما يفعل طاقة الشمس التي اختزنت بفعل كيمائي في الشجرة النامية .

وجميع الحضارات القديـــة ، انتفعت انتفاعاً مباشراً بطاقة

الشمس في الشجر لانتاج الطعام ، او للتدفئة .

ونحن في العصر الحديث ننتفع بالشمس انتفاعا مباشراً ، او غير مباشر ، فالحطب الذي كان يحرق لتوليد الحرارة ، كان يكفي حضارة في طور الزراعة ، ولكنه عاجز عن كفاية حاجة الحضارة الصناعية اليها .

وقد كان الفحم هو الوقود الاول في الحضارة الصناعيـة في عهدها الاول ثم أضيف اليه النفط والغاز الطبيعي في اواخر القرن الماضي وازداد الاعتماد عليها ازدياداً مطرداً فيما مضى من هـذا القرن .

وهذه الانواع الثلاثة من الوقود - الفحم والنفط والغاز الطبيعي - صنعت اولاً في النباتات بفعل الشمس منذ ملايين الملايين مـــن السنين ، ثم دفنت في اطباق الثرى نتيجة افعال (جيولوجية) ومر عليها الزمن فاذا هي ما هي .

وهذه الانواع من الوقود تدير آلاتنا ، وتحرك سياراتنـــا وطائراتنا وقطرنا وسفننا وتدفيء بيوتنا وتولد قدراً كبيراً من الطاقة الكهربائية التي تطرد حاجتنا اليها .

* * *

إن الوقود اذن بانواعه المختلفة كامن في ذلك الشجر الاخضر، بفعل الطاقة المختزنة من اشعة الشمس ، ومن هنـــا ندرك سر الاعجاز في قوله تعالى « الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون » .

وإن البحث هنا ليدفعنا الى الكلام عن السر الكامن في قوله

تعالى (الشجر الأخضر) ولماذا الأخضر بالذات ؟

إن الطعام جميعه يصنع اصلاً في معمل الورق الاخضر ، وما كان على غراره من لحاء الشجر وبعض النباتات البحرية .

إن ذلك الورق الاخضر دون غيره (من معامل الطبيعة والانسان) يستطيع ان يلتقط طاقة الشمس باسلوب هين ، ويستعملها في بناء المواد الغذائية الاساسية ، ثم يأخذها الانسان والحيوان طعاماً .

والنبات الاخضر هو اعظم اداة وادقها لتحويل طاقة الشمس الى اشياء تنفع الناس ، وطريقة النبات في هذا التحويل يطلق عليها وصف (التركيب الضوئي) .

أما سر هذه الطريقة التي يستخدمها النبات فلم يكشف العلماء تماماً حتى الآن ، وإن كشفت بعض غوامضه منذ عهد قريب .

والنفوذ الى هذا السر والانتفاع بما يكشف انتفاعاً اقتصادياً مجدياً هما في طليعة مشكلات العلم ، بل في طليعة مشكلات الحضارة الحديثة ، فعلى السياسة التي تبيح لاعمال الحروب ألوف الملايين من الجنيهات ، ان تبيح للباحثين في هذا الموضوع ما يكفيهم من المال للبحث ، فاذا وفقوا الى حل المشكلة كان ذلك خطوة كبرى نحو تحقيق احدى الحريات الاربع التي يريدها الناس اركاناً للعالم المرتجى وهي التحرر من العوز والفاقة .

ويرى العلماء ان هذه المشكلة تعالج من ناحيتين :

(١) أما الاولى فدراسة اسرار النمو في النباتات وهذا يتيح للعلماء والزراع متعاونين زرع نبات يفوق مئات الاضعاف للنبات

الذي يزرع الآن في جميع انحاء الارض فيحول جانب كبير منه الى مصادر تستخرج منها الطاقة باساليب جديدة .

(٢) وأما الثانية فالبحث الكيمائي الأصيل في التفاعلات التي تمكن العلماء من محاكاة الورق الاخضر ، أو مجاراته في تركيب الكربون المنتزع من (ثاني اكسيد الكربون) والايدروجين من الماء ، ثم اضافة الاوكسجين الى هذه المركبات للحصول على السكر والشحم والخشب ، ثم اضافة النتروجين للحصول على البروتين ومن هذه المركبات الاساسية تصنع مركبات اخرى كثيرة تعتبر جزئياتها مخازن للطاقة .

وصدق الله العظيم اذ يقول : (والارض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) ويقول ايضاً في سورة الحجر : (وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) .

« وَما يعْلَم جنودَ ربِّكَ إلا هُوَ وما هِيَ إلّا ذِكْرى لِلبَشَر » .

الآية (٣١) من سورة « المدّثّر »

الطير الأبابيل
وحرب الجراثيم

لعب الغضب بقلب (أبرهة الأشرم) ملك اليمن ، واستبد بنفسه القلق ، واقسم ليهدمن الكعبة حجراً حجراً ، وليستأصلن شأفة العرب رجلاً رجلاً ، وليستبيحن نساءهم ، ويذبحن اطفالهم .

والسبب في ذلك – كما يقول المؤرخون – ان ابرهة كان قد بنى لنفسه كنيسة (بصنعاء) واجتهد في زخرفتها ، فجعل فيها الرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة بالذهب ، وضرب عليها القباب العالية والمنائر المرتفعة ، وحلاها بالصلبان المذهبة ، والمنابر المطعمة بالآبنوس والعاج .

وكان الغرض من ذلك ان يصرف الناس إلى هذه الكنيسة ، عن الحج الى (بيت الله الحرام) فكان يستميل العرب مرة بالترغيب ، واخرى بالترهيب ولكن هيهات ، فما كان العرب ليصدهم وعد ولا وعيد عن الحج الى بيت الله الحرام .

* * *

ولم يكن أبرهة إلا واحداً من هؤلاء الملوك الذين يحسبون

أنهم ظل الله في ارضه وانه لا راد لقضائهم ولا معقب لحكمهم . وليس على افراد الشعب إلا ان يقبلوا الأرض بين ايديهم ، وينثروا الازهار تحت اقدامهم .

وأعد أبرهة لغزو الكعبة جيشا جراراً ، كأنه السحاب يقطر بعضه بعضا ، وعلى رأسه نخبة من الفيلة المدربة سخرها ابرهة لهدم الكعبة .

وحاول الملك ان يستنفر القبائل العربية ، وان يتخذ منها اعوانا يدلونه على الطريق ، ولكن لم يجد منها في ذلك اذناً صاغية ، لقد استعاذت كلها بالله ان تكون صنيعة للطاغية وان تعينه على هدم بيت الله الحرام .

ولكن رجلاً واحداً باع نفسه للشيطان ، ونسي عروبته وكرامته ، فرضي ان يكون عونا لأبرهة وان يدله على الطريق الى مكة ، لقاء ما عرض عليه من الثراء الزائف ، والجاه العريض ، ذلك هو الخائن المعروف (ابو رغال) .

ان الامة العربية في تاريخها القديم والحديث ، لم تؤت مرة من قبيل ضعفها ولم تؤت من قلة عددها وعددها ، ولكنها مع الاسف كانت تؤتى من قبيل الخيانة والخونة ، وأعوان الاستعمار والمستبدين .

والويل لهؤلاء الخونة من شعوبهم ، إذا لاح فجر الخلاص ، وجاء يوم القصاص ... ذكر المؤرخون انه لما مات الخائن (ابو رغال) رجمت العرب قبره وصار ذلك سنة عندهم في الجاهلية ، ومنسكاً من مناسك الحج ، وجرى ذلك على ألسنة شعرائهم ،

واصبح (أبو رغال) مثلاً من امثلة الخيانة والغدر .
قال مسكين الدارمي :

وأرجم قبره في كل عـــام   كرجم الناس قبر أبي رغال

وقال جرير :

اذا مات الفرزدق فارجموه   كما يرمون قبر أبي رغال

وقال عمر بن الخطاب لغيلان بن سلمة حـــين اعتق عبيده ، وجعل مــاله في رتاج الكعبة – ، ائن لم ترجع في مالك لأرجمن قبرك كما يرجم قبر أبي رغال .

***

وحينما اشرف الجيش على (مكة) فزعت قريش فزعاً شديداً وذهبوا جميعاً الى السيد (عبد المطلب) جد النبي ﷺ ، فأشار عليهم بأن يلتجئوا الى رءوس الجبال وان يتحصنوا بالتلال .

ثم ذهب هو على رأس وفد من قريش لمقابلة أبرهة ، واكرم وفادته وسأله ماذا تريد ؟

فقال : اريد مائة من الابل أخذها جنودك مني عصباً .

فقال ابرهة : سبحان الله ، قد كنت اعجبتني حين رأيتك ، والآن : زهدتني فيك حين كلمتني ، اتسألني عن الإبل ، وتترك البيت الذي هوَ دينك ودين آبائك ؟

قال عبد المطلب : أما الإبـــل فهي لي ، واما البيت فله رب يحميه .

ثم خرج من عنده وامسك بباب الكعبة وانشد :

لا هم إنَّ المرء يمـ   ـنع رحاله فامنع رحالك

وانصر على آل الصليب وعابـديه اليوم آلك
لا تغلبـن جيوشهم ومحالهم ابـداً محالك
جروا جميع بـلادهم والفيل كي يسبوا عيالك
عمـدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك
ان كنت تاركهم وكعـ ـبتنا فأمر ما بـدا لك

***

قال المفسرون : فلم يلبث إلا قليلاً حتى خرج من ناحيـة البحر (طير أبابيل) واختلف المفسرون في حجمها، فقال بعضهم إنها في حجم الطيور الكبيرة ، وقال بعضهم إنها تشبه العصافير ، ومع كل طائر حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، فـكان الحجر يقع في رأس الفارس ثم يخرج من دبره .

وزعم صاحب الكشاف : انـه كان مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يقع عليـه ، فأصبحوا كورق الزرع الذي أكله الدود .

وبالغ صاحب كتاب « الحيوان » فقال : ان الطير الأبابيل، تبيض وتفرخ ، وتعشش في السماء .

والى هذه الحادثة أشار القرآن الكريم في سورة الفيل :

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجـارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .

وتفرق جيش أبرهة ، ومزق في الصحراء كل ممزق . وهلك الطاغية ، جزاء ما اقترفه في حق البيت من إثم وعدوان :

وما من يد إلا يدالله فوقها ولا ظالم إلا سيبلى بأظلم

***

وقـــد لعبت حادثة الفيل دوراً خطيراً في تاريخ العرب . فأصبحوا يؤرخون بعام الفيل ، واصبح لقريش في قلوب العرب مهابة وتقديس ، يرون في رحلتهم واسفارهم آمنين مطمئنين ، فلا يتعرض لهم الناس ، لانهم اهل حرم الله ، وولاة بيتـــه ، وصار (الطير الأبابيل) مثلاً يضرب للتدمير الشامل المخيف ، قال ابو العلاء المعري :

لو غربل الناس كيما يعدموا اسقطا لما تحصل شيء في الغرابيل
او قيل للنار (خصي من جنى) أكلت جسومهم وابت اكل السرابيل
هل ينظرون سوى الطوفان يغرقهم كما يقال او الطير الأبابيل

***

هذا ما ذكره المفسرون بصدد هذه الحادثة .

ونحن لا نستكثر على الله ان يخرج طيراً لها مثل تلك الصفة ، كما لا نشك في قدرته على ان يجعل الطير الابابيل تعشش وتبيض وتفرخ في السماء ، وان يكتب على كل حجر اسم صاحبه الذي يقع عليه .

ولكن الاقرب إلى العقل ، ان مسألة (الطير الابابيل) لم تكن طيراً بالمعنى المفهوم ، وإنما كانت حشرات ناقلة للميكروبات ، كالبعوض ، والذباب ، والطير في (اللغة العربية) يطلق على كل ما يطير بجناحين سواء اكان طيراً ام حشرة .

اما الحجارة (من سجيل) فـكانت من الطين اليابس الملوث

بالميكروبات ، تعلق بأرجل هذه الحشرات ، فإذا اتصلت بجسم الانسان ، غزته الجراثيم ، وتكاثرت فيه ، فأثارت القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط اللحم .

وقد ثبت ان في دنيا الجراثيم فرقاً وجماعات لا ترى بالعين المجردة، ولا يعلم عددها الا بارئها (وما يعلم جنود ربك الا هو)

وقد جنح الى هـذا الرأي الامام « الشيخ محمد عبده » في تفسيره ، واستدل على ذلك بقول (عكرمة) : ان اصحـــاب الفيل قد اصابهم داء الجدري او الحصبة .

ونحن نعلم أن هذه الحشرات طالما تسببت في نقل اوبئـــة خطيرة ، ذهب ضحيتها ملايين من البشر ، وما وباء (الكوليرا) والملاريا وغيرهما من الأوبئـة الفتاكة الا نتيجة لهذه الحشرات الخبيثة .

وان اخشى ما تخشاه الامم في الحروب العالمية ، إنما هو حرب الميكروبات ، وان قنبلة ميكروبية واحـدة في حجم البيضة ، لتكفي للقضاء على جيش او أمة بأسرها .

وفي حرب (القرم) تفشت حمى (التيفوس) والهواء الاصفر (الكولـــيرا) والديسنطاريا ، في صفوف الجيـوش الروسية والبريطانية والفرنسية ، ففتكت بهم فتكاً ذريعاً ،وحصدت من النفوس أضعاف ما حصده القتال .

وقد جاء في كتاب (الاوبئة والحروب) ان الامبراطور (بربروسا) فقد كل جيشه بعد استيلائه على(روما)في عام(١١٦٧) وكانت حمى التيفوس هي السبب في تلك الكارثة .

أما في العصر الحديث فتعتبر الحرب الميكروبية اخطر سلاح بعد الصواريخ والقذائف الموجهة .

ذكرت « صحيفة الاهرام » : انه تجري في المعامل التابعة لأقسام الابحاث العسكرية بالدول الكبرى ، تجارب على اسلحة خطرة ، اسلحة لا تراها العين ، ولا يشعر بها الانسان ، ولكنها تسبب له الشلل والعمى .

إن زجاجة واحدة تحتوي على هذا الموت غير المنظور ، لتكفي لتسمم مدينة بأكملها ، وزجاجتين تكفيان لنشر الهلاك في دولة ، وأما ثلاث فتستطيع ان تسمم قارة .

ان هذه الاسلحة غير المرئية لو استعملت على نطاق واسع لقضت على كل اثر للحياة على الكرة الارضية .

ماهي هذه الاسلحة المخيفة ؟ وما أنواعها وما تأثيرها ؟ وما هي الوسيلة لمقاومتها ؟

لقد اعترف الغرب بصراحة انه ليس لديه مايرد به على الصواريخ التي تزيد سرعتها على سرعة الصوت ، والتي تستطيع ان تدك أسس الحضارة ، ولكنه مع ذلك يتخذ تدابير ايجابية لمواجهة خطر آخر أشد تهديداً للبشرية من القنبلة الهيدروجينية .

ومن هذه التدابير التجارب السرية التي يجريها العلماء على أسلحة كيمائية لها تأثير على الحياة عند الانسان والحيوان والنبات .

ومن بين هذه الاسلحة الكيمائية غازات لها تأثير على الاعصاب وعلى الدم ، وجراثيم تستطيع أن تنشر الاوبئة ، واشعاعات يمكن استخدامها في ميادين القتال وعلى المراكز الصناعية .

ان وباء الطاعون - مثلا - معروف انه قضى على مئات الألوف من البشر في العصور الوسطى ، ولهذا قد يستخدم في حروب المستقبل مع الجدري والكوليرا ، والتيفود كسلاح من الاسلحة المريعة .

وقد ظهر الجنرال وليم (كريسي) رئيس قسم الابحاث الكيمائية بالجيش الامريكي ، أمام الكونجرس ، فظائع الحرب الكيمائية ، فقال : ان ثمة تركيبات كيمائية يمكن استخدامها ضد العدو ، لجعل جنوده تصاب بالعمى المؤقت ، او الشلل المؤقت .

ومن الممكن تعريض مساحات واسعة للإصابة بتلك الاسلحة بمجهود بسيط ، اذ من الممكن ان يحمل احد الجنود او المخربين زجاجة واحدة مليئة بغاز من تلك الغازات الخانقة ، او بكمية من الجراثيم ، ويلقي بها في المنطقة المراد الهجوم عليها فيتحقق الغرض بلا حاجة الى استخدام قوات مقاتلة .

ولما كان ميزان القوى متعادلاً في الوقت الحاضر من حيث قوة كل معسكر الذرية والهيدروجينية ، فان هذه الاسلحة الخفيفة - التي لا يمكن للعين ان تراها ولا للحواس ان تشعر بها في اول الامر - تعد السلاح الوحيد الممكن استخدامه حتى اذا امتنع المعسكران الكبيران عن استعمال القنابل والاسلحة النووية .

ولهذا يرى خبراء الدفاع انه من الضروري الاستعداد لمواجهة خطر هذه الاسلحة بانتاج مقادير كبيرة من الاقنعة الواقية من الغازات ، والملابس التي تقي من الاشعاعات الذرية .

وتتألف الاسلحة الكيمائية البيولوجيـة الاشعاعية من ثلاثة انواع في الوقت الحاضر هي :

(١) الاسلحة الكيمائية : ومعروف منهاالآن ستة انواع هي : الغاز المسيل للدموع ، والغاز المسبب للقيء ، والغاز الخانق ، والغاز الحارق ، والغاز المؤثر على الدم والغاز المؤثر على الاعصاب ، ومن شـأنه اصابة كل من يتعرض له بالشلل ، والمعتقد ان ثمة انواعاً اخرى أفظع ، ولكنها لا تزال محوطة بالسرية والكتمان .

(٢) الاسلحة البيولوجية : وهي افظع من الغازات الكيمائية لانها تؤثر على التكوين العضوي لمن يتعرض لها فتصيبه بالعجز او بالتشويه ؛ كما انها تسبب الموت لكل كائن حي يتعرض لهاسواء أكان انساناً ام حيواناً ، وحتى النباتات تهلك إذا تعرضت لها .

وبعض هذه الاسلحة يستطيع ان يقضي على مجموعة كبيرة من البشر والحيوانات .

وطبيعي ان استخدام هذا النوع من الاسلحة المريعة ، رهن بما يهدف إليه المعتدي وبما يريد تحقيقه من وراء عدوانه.

وتتضمن هذه الاسلحةانواعاً تسبب إصابات وبائية بالانفلونزا والجدري والطاعون والشلل وامراض اخرى لم يكتشف لها اي علاج حتى الآن .

٣ ــ الاسلحة الاشعاعية : وتستخدم فيهـا المواد المشعة او الاتربة المشبعة بالاشعاعات بحيث إذا القيت فوق منطقة مـــا ، احدثت اثراً يشبـــه اثر الانفجارات النووية ، وسببت إصابات مؤقتة ، او الموت لمن يتعرض لها ،وترغم هذه الاسلحة العدو على

الجلاء عن المراكز الحيوية في اسرع وقت .

فمثلًا يمكن خلال ساعات فقـــط شطب اسماء (برمنجهام ، وشيكاغو وميلانو) وغيرها من المراكز الصناعية إذا ما استخدمت تلك الاسلحة ضدها .

ويقول (الجنرال كريسي) إن من الممكن استخدام كل هذه الانواع من الاسلحة عن طريق المخربين او بإلقائهـــا من الطائرات ، او قذفها من الغواصات ، او القذائف الموجهة .

ولما كان العدو لا يفطن في بادىء الامر لمثل هـــذا الهجوم الخفي ، فإن النتيجة هي : انه يمكن بعد ايام فقط ان تنهار اية دولة تتعرض للهجوم بمثل هذه الاسلحة .

ولهذا تقوم معامل الابحاث في الدول الكبرى . بجهود جبارة لمحاولة الكشف عن تلك الاسلحة المريعة بسرعة .

وقد تمكنت امريكا من إنتاج جهاز اوتوماتيكي يحدث اشارات ضوئية واخرى صوتية بمجرد أن يسجل انتشار نوع من الغازات الكيمائية الخطرة .

واما الكشف عن الاسلحـة البيولوجية فصعب ، لان الجو بطبيعته مليء بأنواع ضارة ومفيدة من البكتيريا ، ولأن تحديد نوع الجراثيم التي يحملها الجو ، يحتاج علمياً الى عـدة ايام ، ومع ذلك فإن العلماء معنيون بصنع مرشح خاص ، يستطيع ان يعزل العناصر الضارة في الجو وان يحدد نوعها خلال ساعات فقط .

اما الاشعاعات الذرية فلقد ابتكرت للكشف عنها اجهزة من البلاور ، الغرض منها تحديد كثافة تشبع تلك الاشعاعات بالذرة .

وبديهي انه لم يمكن حتى الآن اكتشاف عـــلاج دقيق لمن يصابون بتلك الاشعاعات ، ولهذا ينتظر ان يكون عدد ضحاياها في اية حرب مقبلة كثيراً جداً .

أما بعد : فإن العالم اليوم يعيش على حافة الهاوية ، وإن اية هفوة سياسية يرتكبها سياسي احمق ، لتوشك ان تكون نذيراً بحرب شاملة مدمرة ، لن يكون حظ الغالب فيهـــا بأوفر من حظ المغلوب .

وعلى قادة الدول الكبيرة ان يعيدوا قراءة المقدمة التي بدأ بها ميثاق الامم المتحدة ، وان يفكروا فيهـا طويلاً ، وان يتدبروها الذكرى . وإن الذكرى تنفع المؤمنين .

« نحن شعوب الامم المتحدة ــ وقد آلينا على انفسنا ان ننقذ الاجيال المقبلة من ويلات الحرب ، التي في خلال جيل واحد ، جلبت على الانسانية مرتين ، احزاناً يعجز عنها الوصف ـ نؤكد من جديـد إيماننا بالحقوق الاساسية للانسان ، وبكرامة الفرد وقدره ، وبما للرجال والنساء والامم ـ كبيرها وصغيرها ــ من حقوق متساوية .

واعتزمنا ان نأخذ انفسنا بالتسامح، وان نعيش معاً في سلام، وحسن جوار، وان نضم قوانا كي نحتفظ بالسلم والأمن الدولي .. والا نستخدم القوة المسلحة » .

لعنة الله على اسرائيل

لعنة الفراعنة :

(١) حينما اكتشف العالم الاثري (لورد كارنرفون) مقبرة الملك الشاب (توت عنخ آمون) اقتحم الباب. وخطا الى داخل المقبرة ، وعلى شفتيه نكتة وابتسامة - وكنا نود ألا يضحك - فقد شعر بوخزة اليمة في خده ، ومات قبل ان يتم كشف النقاب، عن العجائب التي احتوتها هذه المقبرة ، وقال الناس يومئذ : لقد حلت عليه لعنة الفراعنة ..... وكان الدكتور (ماردس)الشهير مقتنعاً بأن فتح مقبرة توت عنخ آمون سيجلب الموت فقد قال « كان المصريون ، منذ سبعة آلاف سنة ، يملكون سر احاطة موميائهم بنوع من الطاقة الديناميكية ليست لدينا ابة فكرة عنها».

وعندما فتحت المقبرة دخلها اثنان آخران من الرجـــال المرموقين : احدهما الكولونيل (أوبري هربرت) أخو كارنرفون ، والآخر (هوايت)، وارتعد هربرت اثناء دخوله المقبرة ، وتوقف عن المسير راغباً عنه ، ثم قال : « لكم اتمنى في هذه اللحظـة ، لو

ان كارنوفون لم يعثر على هذه المقبرة ، فان شيئاً مروعـا سوف يصيب عائلتنا » .

وقد توفي هو ايضاً قبل انقضاء السنة ، أما رفيقه (هوايت) عالم المصريات فقد تبدل بعد فتح المقبرة رجلا آخر ، وأصبح كمن يطارده شبح مرعب غير منظور ، ثم قضى نحبه منتحراً في نفس العام ، وجاء في الخطاب الذي خلفه وراءه « لقد حلت عليّ لعنة الفراعنة » .

واستقدمت السلطات المصرية سير (آرثر دوجلاس ريد) من كبار المختصين بالاشعة ، ليصور المومياء بأشعة (إكس) فصار في عداد الأموات في خلال عام .

(٢) ذكر الاستاذ (احمد فهمي ابو الخير) في كتابه(اشباح وأرواح) ان المستر (دوجلاس) المتقدم ذكره، قد زار مصر في اوائل القرن الحالي ، وقبل ان يغادر القـــاهرة عرض عليه التوجان صندوقان « مومياء مصرية » في حالةجيدةجداً ،ودلت الكتابة الهيروغليفية التي فوق الصندوق على ان الجثة التي فيـــه جثة كبير الكاهنات في معبد (آمون رع) وقـد حفرت على الصندوق صورة رائعة لها بالمينا والذهب .

وأحس الرجل بدافع داخلي يطلب منه اهمال هذه المومياء وصندوقها ، ولكن شكل الصندوق كان مغرياً فاشتراهوأرسله الى الفندق حتى يتمكن من شحنه الى لندن .

وبينما المستر « دوجلاس » يصطاد في رحلة نيليـــة على ظهر الزورق البخاري الجميل اذ انفجرت البندقية في يده اليمنى ، ولما

عاد الى القاهرة كان الجرح قد فسد ولم يكن مفر من بتر يـده حتى المرفق .

وشحنت المومياء في الباخرة الى لندن ، وسافر في صحبتهـا صديقان حميان المستر دوجلاس ، فكانت شؤماً عليهما اذ اصابها مرض خطير لم يمهلها حتى ماتا في عرض البحر والقيت جثتاهما في الماء ليكونا طعماً للحيتان والاسماك وكلاب البحر .

ثم وصل اخيراً دوجلاس الى منزله بلندن ، وكان الصندوق قد سبقه اليه ، وأحس حينما رآه كأن عيني الكاهنة في وجهـــا المحفور فوق الصندوق تنظران اليه نظرة الكراهيـة والبغض ، وكأنما عادت اليهما الحياة من جديد ، ففزع الرجل وذهب القلق بنفسه كل مذهب .

وبينما هو كذلك زارته احدى صديقاته وهي اديبة مشهورة ، ولما ادركت حيرته وقلقه ، غلبها الضحك وأفهمته ان الذي يقوله خرافة ، وانها على استعداد لنقل المومياء الى منزلها بضواحي لندن ، وما كاد الصندوق يستقر بمنزل السيدة حتى توالت عليها النكبات ، واحاطت بها الكوارث من كل جانب .

وقعت امها وهي هابطة على السلم فانكسرت ركبتها ، وظلت تعاني الالم شهوراً حتى ماتت ، واما الرجل الذي تقـدم لخطبة هذه الاديبة المشهورة فقد فسخ الخطبة وابى ان يتزوج منها دون ان يبدي سبباً معقولاً ، وبعد ايام هلكت الدواجن كلها ومات لها ثلاثة كلاب كانت تعتز بها ، اصيبت كلها بداء السعار فاضطرت لإعدامها .

واخيراً اصيبت السيدة بمرض لم يستطع تشخيصه احـــد ، واشتدت بها العلة ، فاستدعت محاميها لتكتب وصيتها ؛ ورأى المحامي انه لا بد من إعادة المومياء الى صاحبها « دوجلاس » ، ورأى هذا ان يرسل الصندوق بما فيه الى القسم المصري في المتحف البريطاني ، وعهد بهذا الامر الى صديق له يتولاه ، وكان الصديق من المغرمين بتاريخ مصر القديم فنقل هـذا الصندوق الى منزله لدراسته ، وما هي إلا ٣ ايام حتى فوجىء الناس بوفاة الرجل وهو في ريعان الشباب ، لانه تناول خطأ مادة سامة ظنها دواء مسكناً.

وما كاد الصندوق يصل الى المتحف حتى حدثت فيه حوادث مزعجة ، وحاول احد الرسامين المشهورين رسم هـذا الصندوق اربع مرات ، وفي كل مرة كان يحدث له حادث يعوقه عن العمل ، وفي المرة الاخيرة اتم الرسم ، وما كاد يغادر المتحف حتى دهمته عربة يجرها جوادان .

ولما ضاق رجال المتحف ذرعاً بتلك المومياء رأوا ان يهدوها الى القسم المصري بمتحف « نيويورك » بالولايات المتحـــدة ، وشحنوها فعلاً على ظهر الباخرة العظيمة « تيتانك » فكانت شؤماً على الباخرة ومن فيها ، لقد استقرت هذه الباخرة هي والمومياء في قاع المحيط .

***

هذه بعض الحوادث ذكرتها لك أيها القارىء لتتساءل معي هل جاءت كل هذه الاحداث محض المصادفة ، ام ان لأرواح قدماء المصريين دخلاً في ذلك .. إنني اخدعك واخدع نفسي إذا

قلت : ان المصادفة وحدها لها دخل كبير في تلك الظواهر العجيبة، فبماذا نستطيع ان نعلل هذه الظاهرة ؟

إن الأرواح بعد الموت باقية خالدة لا ريب في ذلك ، ولكن السؤال الذي يتراوده على خواطرنا جميعاً : هل يمكن لهذه الارواح ان تتصل بالاحياء ؟ وهل لها تأثير على العالم الارضي ؟ ولماذا لا نراها ونخاطبها إن كان لها وجود ؟

يجيب على ذلك بعض العلماء المختصين بشؤون الروح فيقولون:

إن الارواح مادة اثيرية لها ذبذبات خاصة لا تتأثر بها حواسنا إلا في حالات خاصة ، ومثل ذلك كالموجة القصيرة والمتوسطة وجميع الموجات الصوتية التي تسبح في الفضاء، وهذه الموجات لا تتأثر بها الاذن إلا عن طريق جهاز الارسال (محطة الإذاعة) وجهاز الاستقبال (المذياع)

وليس معنى عدم ادراك حواسنا للارواح انها غير موجودة فهناك من الاشعة غير المنظورة كالاشعة (تحت البنفسجية وفوق الحمراء) ولكنها مع ذلك تحدث في حياتنا العامة آثارا بعيدة وتملأ رحاب هذا الكون الواسع العجيب .

ومع ذلك نرى عالماً كبيراً كالدكتور (ادجار دلاس) يقول في مجلة (ما كولز) :

« سوف يأتي يوم تكشف فيه ان للافكار ، طبيعة مادية، وان الحب والكراهية لها من الخصائص المادية ما لأشعة الشمس ، وسنعلم يومئذ ان القصص التي اعتبرناها من قبيل الخرافات ، وكذلك الافكار المستغربة التي نادى بها انصاف المجانين من الكهنة،

تستند جميعاً الى أسس قوية من الحقيقة والواقع ، إن سموم الحقد لا تنتشر كالسحابة فوق (وادي الملوك) كما انها لا تقف حائلا خفياً يثأر من كل فضولي يتطفـل على اسرار الموتى ، وإنما هي موجودة على اية حال كعامل ازلي له آثاره الملموسة .

«ولقد شعر العلماء الذين شاهدوا اعمال الحفر بعدم الارتياح على الرغم بما اشتهروا به من صفاء الذهن، ومثل هؤلاء لا يؤمنون بالاشباح، ولكنهم لا ينفون ما للظواهر النفسية من إمكانيات.»

***

هذا ولعله من الغريب ان لعنة القنبلة الذرية ، اصبحت كلعنة الفراعنة ، فقد اطاحت بأكثر الذين اخرجوها الى العالم .

لقد أعدم (بيريا) في روسيا ، وكان رئيساً لهيئة انتاج الذرة هناك ، وحوت السجون وغرفة الاعدام سلسلة من علماء الذرة الامريكيين والاوربيين ، فأعدم العـــالم الذري « روزنبرج » وأعدمت زوجته وسجن « ناي ماي » وجولد » وفوخس » وكلنا يعلم مصير العالم النابغة « اوبنهايمر » .

لعنة حلت بايدن :

واخيراً فهل صحيح ما يقال من ان لعنة الفراعنة ، حلت بالمستر (إيدن) رئيس الوزارة البريطانية السابق حتى فقد اعصابه في (جاميكا) وفقد كرسيه في البرلمان ، وفقد رئاسته لحزب العمال ؟

نذكر هنا ما كتبه الاستاذ (جورج عزيز) في صحيفـة الاهرام :

(١) بداية النهاية :

كان تأميم القنال بداية النهاية في حياة ايدن السياسية ...

فما ان اذاع الرئيس (جمال عبد الناصر) قرار التأميم ، حتى اماط إيدن اللثام عن حقيقة كان لا بد لمصر ان تواجهها عندانتهاء امتياز شركة قناة السويس المنحلة سنة ١٩٦٨ .

تلك الحقيقة هي ان بريطانيا وفرنسا وسائرالدول التي تتعامل معها في ميدان الاستعمار الغشوم ، كانت تدبر مؤامرة خبيثة اجرامية للامتناع عن تسليم القناة لمصر عند انتهاء الامتياز ، فقد قال (إيدن) في البيان الذي القـــاه في اليوم الاخير من شهر يوليو سنة ١٩٥٦ بمجلس العموم « ان حكومة صاحبة الجلالة لا تستطيع ان تقبل اية ترتيبات بشأن مستقبل هذا الطريق المائي الدولي العظيم ، ترمي الى تركه في الايدي الطليقة لدولة واحدة تستطيع ان تستغله لاغراض السياسة القومية كما دلت على ذلك الاحداث الاخيرة » .

ومعنى هذا الكلام ان بريطانيا وشريكاتها كانت تدبر تلك المؤامرة الخبيثة ، وكانت ماضية في التمهيد لها بكل الوسائل الممكنة ، لو لم يبادر الرئيس (جمال عبد الناصر) باعلان ذلك القرار التاريخي الذي رد به على ألاعيب واساليب المستعمرين فيما يتعلق بتمويل مشروع السد العالي ، وهو القرار الخاص بتأميم شركة القناة .

(٢) ايدن يركب رأسه

ولقد افقد ذلك القرار التاريخي إيدن رشده ، وجعله يركب

رأسه ويمضي إلى الهاوية .

اراد ان يخيف مصر ، فأصدر على الفور اوامره بأن تتحرك بعض وحدات الاسطول البريطاني ، في القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط ومن البحر الاحمر .

ولكن مصر لم تخف بل ظلت رابطة الجأش لا تقيم وزناً لأي تهديد أو وعيد .

وأحيلت المسألة الى مجلس الامن فأرسل ايدن الى (سلوين لويد) في نيويورك تعليمات تقضي عليـــه بأن يشتد في موقفه والا يتراجع قيد أنملة .

وفي الوقت نفسه اخذ ايدن يهدد باستعمال القوة رغبة منه في اضعاف موقف وفد مصر في مجلس الامن .

ولكن وفد مصر ظل عند موقفه ... وانتهى الاخذ والرد باتفاق وزراء خارجية مصر وبريطانيا وفرنســا خلال اجتماعاتهم السرية في الثاني عشر من شهر اكتوبر عام ١٩٥٦ على طائفة من الاسس والمبادىء التي تصلح لإجراء مفاوضات لتسوية المسألة ، وتم الاتفاق على إن تجري المفاوضــات بينهم على المبادىء الستة المشهورة .

غير ان ايدن اراد ان يثبت مرة اخرى ان في وسع بريطانيا ان تمضي في تخويف مصر ... فلقد القى يومئذ خطاباً في جمع من المحافظين ، جاهر فيه بأن التدابير العسكرية التي اتخذتها بريطانيا في القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط ستظل قائمة وان الحكومة البريطانية لا تعتزم تعديل القرار الذي اتخذ بشأنهــا

او سحبه .

وهكذا عاد ايدن الى التلويح باستخدام القوة في الوقت الذي قرر فيه مجلس الامن اجراء مفاوضات بين مصر وبريطانيا وفرنسا.

(٣) بداية العاصفة على ايدن

وكان من جراء ذلك ان بدأت العاصفة تهب على ايدن في بريطانيا بشدة وعنف ، فقد كتبت جريدة الديلي هيرالد العمالية مقالاً افتتاحياً بعنوان « فشل ذريع » قالت فيه : ان سوء معالجة السير انطوني ايدن لأزمة قناة السويس ، بث عوامل الانقسام بين حزب المحافظين ، فقد كان انصار القوة يخشون تخليه عن فكرة استخدام العنف ، بينما كانت فرقة السلام بالحزب تخشى ان يكون ايدن لا يزال متمسكاً بهذه الفكرة « الخطيرة » ، ولكن الواقع ان ما هو ادهى وأمر ان سياسة ايدن ازاء ازمة قناة السويس قد جعلت الشعب البريطاني ينقسم على نفسه .

واضافت الجريدة تقول : انه وان كان مستر سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية قد ظهر بمظهر الضعف في الامم المتحدة ، الا ان سير انطوني ايدن ظل يلوح بالقوة ؛ والواقع ان ايدن لم يتعهد باحترام القانون الدولي الا بعد ان تحدته الصحف ، وبعد ان ازعجته احتجاجات (الكومنولث) وبعد ان واجه سخط وغضب البرلمان الانجليزي .

واختتمت الجريدة مقالها باتهامها ايدن بالغباء ، لأن سياسته لا يمكن ان تصدر الا عن شخص لا يمكنه ان يدرك خطورة

المشاكل الحاضرة .

يوم ٢٩ أكتوبر

وفي خلال شهر اكتوبر تقرر ان تبدأ المباحثات الخاصة بتسوية مسألة القناة بين وزراء خارجية مصر وبريطانيا وفرنسا في جنيف في التاسع والعشرين من الشهر نفسه .

ولكن ايدن ، وموليه ، ولويد ، وبينو ، كانوا في غضون ذلك يدبرون خطة العدوان الغاشم على مصر بالاتفاق مع اسرائيل ... وهكذا لم تبدأ المفاوضات في هذا اليوم الموعود ، بل بدأ الهجوم الاسرائيلي .

وجن جنون ايدن ولويد وموليه وبينو حين رفضت مصر الانذار المشترك الذي وجهته اليها والى اسرائيل ، بريطانيا وفرنسا في الساعة السادسة والنصف من مساء يوم ٣٠ اكتوبر وطلبتا فيه وقف الاعمال الحربية وسحب جميع القوات المصرية والاسرائيلية الى مسافة عشرة اميال من قناة السويس ، وان تقبل مصر احتلال القوات البريطانية والفرنسية مواقع رئيسية في بور سعيد والاسماعيلية والسويس ، وان تجيب هذه المطالب خلال اثنتي عشرة ساعة من تسلم الانذار والا استعملت الدولتان القوة في تنفيذ ما ورد في انذارهما .

وفي ساعة متأخرة من ليلة ٣١ اكتوبر بدأت العمليات الحربية البريطانية الفرنسية ضد المواقع الحربية في منطقة القناة .

(٤) العاصفة تشتد

وبعد يوم واحد اشتد هبوب العاصفة على ايدن في بريطانيا ، فقد قوبل عند وصوله الى مجلس العموم بعاصفـــة من الصفير والهتافات المناهضة له ، بسبب القرار الجنوني الذي اتخذه بشأن الهجوم على مصر ... ووقف نواب المعارضة موجهين كلامهم الى ايدن ووزرائه : «استقيلوا» ،وتلا انيورين بيفـان فقرات من الإنذار البريطاني الفرنسي الى مصر ، ثم قال : « انها حقـــاً لغة البلطجية » .

وازداد موقف ايدن حرجـــاً ، فقد قدم حزب العمال الى مجلس العموم اقتراحاً بتوجيه اللوم الى الحكومـة ، جاء فيه ما يلي :

« يأسف هذا المجلس ابلغ الاسف للاجراء الذي اتخذتـــه الحكومة باستخدام القوة المسلحة ضد مصر مخالفة بذلك ميثاق الامم المتحدة مخالفـة صريحة وبذلك احتقرت اعتقادات فريق كبير من الشعب البريطاني واوجدت انقساماً في الكومنولث ، وتوتراً في حلف شمال الاطلنطي واضرت بالقواعـــد التي يقوم عليها النظام الدولي ضرراً خطيراً » .

(٥) ثورة في حزب المحافظين

وفي الوقت نفسه تقريبـــاً بدأت حركة قوية داخل حزب المحافظين نفسه لإقصاء ايدن عن رياسة الوزارة ، وقال اللورد الترنشام رئيس تحرير المجلة الشهرية المحافظة « ان ايدن في حالة

ذهول تدفعه الى التمسك بالسلطة ، وان اعضاء البرلمان تحققوا من ذلك وهم يعملون على التخلص منه ، ثم قال - ان ايدن وزملاءه لا يهددون سمعة بريطانيا في العالم وارتباطها القيم بدول الكومنولث فحسب ، بل انهم يدفعون حزب المحافظين الى كارثة لا قيام له من بعدها ... »

(٦) ايدن يهذي

وقد برهن ايدن على انه بدأ يفقد رشده .... فقد وجه رسالة الى الشعب البريطاني ، زعم فيها ان بريطانيا وفرنسا تعملان على منع نشوب الحرب العامة في الشرق الاوسط ، وقال - إنه متأكد من ان امريكا ستفهم هذا وتدركه .

وقد اضطر ايدن الى توجيه تلك الرسالة بعدما لاحظه من انشقاق كبير في الرأي العام حول سياسته الجنونية ، وبعدما هددته نقابات العمال البريطانية بالاضراب عن العمل ما لم يكف عن سياسته الحربية ضد مصر .

وزعم ايدن انه اضطر الى اتباع سياسته الحالية لمنع نشوب حرب كبيرة مدمرة .

وفي اليوم التالي قامت في لندن مظاهرات عنيفة اشترك فيها اكثر من عشرين الف شخص احتجاجاً على سياسة ايدن الفاشمة ضد مصر وبلدان الشرق الاوسط ، واتجه المتظاهرون الى ميدان « الطرف الاغر » حيث تجمعوا واخذوا يهتفون باقالة إيدن فوراً.

(٧) على الباغي تدور الدوائر

وبدأت الدوائر تدور على إيدن الباغي واخذت حكومته تعاني سكرات الموت، بل ان حياة ايدن نفسه اصبحت مهددة، فقد كتبت صحيفة « الصنداي اكسبرس » يوم ١١ نوفمبر تقول: إن بوليس (سكوتلانديارد) قرر ان يتأكد من محتويات كل طرد يرسل الى مقر رياسة الوزارة باسم ايدن خشية ان يعمد بعض المعارضين لسياسته في العدوان على مصر الى ارسال طرود متفجرة اليه .

حتى صحيفة « التيمس » نفسها بدأت تهاجم ايدن ، فقد اشارت الى الهجوم على بور سعيد قائلة: انه عمل اسيء توجيهه ولم يسفر عن اية فائدة لبريطانيا يمكن مقارنتها بما تكبدته من خسائر في الصداقة والمال .

ولم يستطع ايدن ان يبرر للشعب البريطاني — ولا للعالم — الحرب الفاشلة التي شنها على مصر ، ولم يستطع اي مخلوق ان يساعده في الاهتداء الى مبررات. انه لم يحقق شيئاً مما اراد ، بل فشل على طول الخط ، وكان كلما اختلق حجة انكشفت في اليوم التالي فوراً ، فإذا هي أوهى من بيوت العنكبوت .

واخيراً لم يجد ايدن مفراً من الاعتراف بفشله الذريع .. ففي ساعة متأخرة من ليلة ١٩ نوفمبر اصدر مجلس الوزراء البريطاني بياناً جـــاء فيه ان ايدن « يعاني آثار ارهاق شديد وانه الغى المواعيد التي ارتبط بها استجابة لنصح اطبائه » .

(٨) انهيار عصبي في جاميكا

وسافر ايدن الى جاميكا للاستجمام .. ولكنه لم يستجم وانما اصيب بانهيار عصبي واعرب عن رغبته في الاستقالة فوراً ..

وعندماقرر العودة الى لندن احيط موعدسفره من (جاميكا) بتكتم شديد لدرجة انه حجزت له اماكن على ثلاث طائرات مختلفة ، وقد اتخذت تلك الاحتياطات الشديدةخوفاً على حياته ، وخاصة بعد ان ظهرت على جدران مدينة (كنجستون) لافتات عليها شعارات عدائية « يجب ان يرحل ايدن »

(٩) لعنة الفراعنة

واخيراً حلت لعنة الفراعنة بايدن ...

ففي الثامن من شهر يناير عام ١٩٥٧ قدم استقالته .

ولم يكن مصير الجنرال « ستوكويل » قائد القوات المعتدية في بور سعيد خيراً من مصير ايدن ، فقد نقل الى عمل كتابي إذ عين سكرتيراً عسكرياً لوزير الحربية ... اما الجنرال (كيتلي) القائد العام للقوات البريطانية الفرنسية ، فقد ارغم على التقاعد قبل ان يبلغ سن التقاعد .

وهكذا اسقطت مصر ، لاول مرة في التاريـــخ وزارة بريطانية ، بعد ان ظلت بريطانيا حقبة من الزمن تسقطالوزارات المصرية ..

والقوة التي اسقطت بها مصر ايــدن هي قوة الحق مقرونة بلعنة الفراعنة .

لعنة الله على اسرائيل

ونختم هذا البحث بما عقد هذا الفصل من الكتاب لأجله ، وهو تلك اللعنة المدمرة التي لا يمكن انكارها ، ولا يمكن مرة ان تتخلف ، لانها لعنة الله (ومن يلعنه الله فلن تجد له نصيراً) .

جاء في كتاب لسان العرب « لابن منظور » : كل من يلعنه الله فقد ابعده من رحمته واستحق العذاب فصار هالكاً ، واللعن ايضاً هو التعذيب ومن ابعده الله لم تلحقه رحمته وخلده في العذاب.

ويذكر القرآن الكريم في كثير من آياته ، ان سبحانه قد تكفل بلعن بني اسرائيل الى يوم القيامة ، جزاء ما اقترفوا من آثام في حق الله وحق الانبياء وحق البشرية جمعاء فيقول سبحانه (فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية .. واغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة .. واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) .

فما مدى صحة هذا الكلام من التاريخ ؟

ورد في كتاب « فلسطين وجاراتها » للأستاذ (محمد علي علوبة) الوزير السابق ما يلي :

يشعر اليهود بكراهية الناس لهم . وهم يرجعون ذلك الى اختلاف الاديان ، والى الغيرة والحسد من تفوقهم المالي ، ولكن الحقيقة انهم شعب عنيف منحرف عن الفضيلة . لا يتورع عن الخداع والنفاق والعسف ، والكذب ونكران الجميل :

(١) نزل بنو اسرائيل بمصر وانضموا الى يوسف (عليه السلام) فاكرمهم المصريون ، حتى اذا اثروا تغيرت احوالهم

فخافهم المصريون واضطهدوهم، فهاجروا واخذوا معهم اموالهم.

(٢) بعد ان اقاموا بالتيه اربعين عاماً تغلبت عليهم فكرة الغزو والفتح فهاجموا (اريحا) وقتلوا النساء والاطفال ونهبوا الاموال .

(٣) واستمر اليهود في الشغب في كل بلد ينزلون به ، حتى تسلموا السيد المسيح الاسرائيلي المولد والنشأة وعذبوه بأشد انواع العذاب ، لا لشيء إلا لأنه اراد ان يصحح عقيدتهم .

(٤) وسلكوا مع المسلمين مسلكاً شائناً ودسوا على النبي الكذب ، ودسوا الاحاديث المكذوبة ويقول عقلاء المسلمين : لولا ان القرآن دون في عهد الرسول وحفظ في الصدور لعملوا على ان يدسوا عليه آيات ليست منه ، ولكن الله تكفل بحفظه «انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » .

ولقد بذروا بذور الشقاق بالمدينة بين الاوس والخزرج بعد ان آخى الاسلام بينهما . ولولا تدخل الرسول لارتدوا اعداء يقتتلون .

ولقد حاولوا ايضا ايقاع الفتنة بين المسلمين بالمدينة ، فأجلاهم المسلمون عنها ، فذهبوا الى مكة وأثاروا الكفار وعاونوهم على محاربة المسلمين ، وكانت موقعة (الخندق) التي شتت الله فيها شمل الاحزاب وردهم خائبين.

وقد تحدث القرآن عما بين المسلمين والمسيحيين من مودة فقال « لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك

بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » .

اما عداوة اليهود المسيحية فلا تحتاج الى دليل ، وترجع الى العهود الاولى .

الاسلام دين عالمي ، والمسيحية دين عالمي ، وبينهما من الود ما تجب المحافظة عليه ، اما اليهودية فدين عنصري مجاف لهما .

(٥) لقد استطاع اليهود ان يتغلغلوا في اوروبا ، فجمعوا المال وتولوا المناصب ، وتدخلوا في السياسة لأغراض في نفوسهم ، فضاق الاوربيون بهم ذرعاً ، وانزلوا بهم انواع التعذيب ،تشهد بذلك محاكم التفتيش ، وحملات اضطهادهم في روسيا ، وبولندا ، ورومانيا ، والمانيا ، وحملات هتلر وموسوليني ، فهل يعتبر المسيحيون الذين يساعدون اليوم اسرائيل ، بما يرويه التاريخ عن قوم كادوا لهم ولا يزالون يكيدون ؟ انهم الآن يولون وجوههم شطر المسلمين والعرب مستعينين عليهم بالمسيحيين ، وهم حين ينتهون من المسلمين سيولون وجوههم شطر المسيحيين حتى تخلو الدنيا في زعمهم لهم .

لقد وفد « فرانك كيرنز »مندوب شركة كولومبيا الاذاعية الامريكية الى القاهرة فنشر حديثاً خطيراً للرئيس (جمال عبد الناصر) ... استمعت اليه الملايين في التلفزيون» وكانت اغلب الاسئلة الموجهة اليه تلف وتدور حول علاقة الرئيس بأمريكا ... ثم وفد السؤال المقصود عن اسرائيل فسأل المذيع الامريكي « هل سياستكم هي محو اسرائيل من الوجود ؟» .

فأجاب الرئيس اجابة شاملة اشار فيها الى مايزعمه الاسرائيليون

من ارضهم الموعودة ، والى الخيال الاسرائيلي بالتوسع من «النيل الى الفرات » ، والى مطامعهم في الاستيلاء على مصر والاردن ، وسوريا ولبنان وجزء من العراق ، والى استقبالهم كل عام ما يقرب من مائة الف مهاجر ، والى اشتراكهم في العدوان على مصر مع انجلترا وفرنسا ، فلما سئل سيادته عن الحل ، قال : بالطبيعة « لا حل وهذا هو الحال »

وبعد ايام من هذا التصريح للرئيس (جمال عبد الناصر) احس رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي « نيكتا خروشتشيف » جدية الموقف فأذاع تصريحاً شاملاً حمل فيه حملة شعواء على اسرائيل فقال :

« إن اليهود كجنس عاجزون عن تحقيق استقرار سياسي او استقلال ثقافي ، وإن اسرائيل العوبة في ايدي الاستعماريين واعداء الدول الاشتراكية .

« إن الاتحاد السوفييتي قد حاول توطين اليهود بعد ثورة ١٩١٧ في منطقة (بيروبيجان) الآسيوية ولكن هذه المحاولة فشلت .

ووصف (خروشتشيف) المنطقة التي رفضها اليهود بأنها من اخصب المناطق ومن افضلها اعتدالاً في المناخ والزراعة وكل ما فيها يبعث على السرور ، فهناك الماء والشمس والغابات الشاسعة ، والحقول الغنية والمناجم المليئة بالمعادن والانهار الغاصة بالاسماك ، ورغم ذلك فقد رفض اليهود البقاء في هذه المنطقة لأسباب تاريخية .

ثم شرح هذه الاسباب فقال : ان اليهود كانوا يفضلون دائماً الحرف اليدوية ، ولكن اذا بحثت عنهم مثلاً في التعمير او

التعدين ، وهي حرف جماعية فلن تجد يهودياً واحداً ، انهم لا يحبون العمل الجماعي والخضوع للنظام وهم يفضلون دائماً ان يكونوا انفصاليين وفرديين » .

وتحدث عن اسرائيل فقال : « ان تاريخ اليهود منذ عشرات القرون يدل على انهم لم يفلحوا في تهيئة معيشة مستقلة لأنفسهم منفصلة عن بقية المجتمعات ، وان تكوين مجتمع يهودي مستقل امر لا يمكن القيام به كما لا يمكن تحقيق مجتمع سياسي مستقل لهم .

ان اليهود يبحثون في كل شيء ، ويناقشون كل شيء وينتمون الى انحرافات ثقافية عميقة » .

مراجع الكتاب

الامامة والسياسة . . . . . . لابن قتيبة

الاغاني . . . . . . لابي الفرج الاصفهاني

الامراض النفسية . . . . . الدكتور عزت راجح

اسس الصحة النفسية . . . . . الدكتور القوصي

العقد الفريد . . . . . . لابن عبد ربه

العمدة . . . . لابن رشيق

كليلة ودمنة . . . . . . بيدبا الفيلسوف

ثمار القلوب . . . . . . للثعالبي

أسرار البلاغة . . . . . . عبد القاهر الجرجاني

البخلاء . . . . للجاحظ

الحيوان . . . . «

تزيين الأسواق . . . . . . داود الإنطاكي

غرائز الحيوانات . . . . . . محمد فياض

سرح العيون . . . . . . ابن نباتة المصري

المقدمة . . . . لابن خلدون

لزوم ما لا يلزم . . . . . ابو العلاء المعري
الكامل . . . . . . المبرد
السيرة الحلبية . . . . . علي بن برهان الحلبي
الأرواح . . . . . . لطنطاوي الجوهري
رسائل الأرواح . . . . . الدكتور صروف
الأنثى . . . . . . » محمد كمال
القرآن ونهاية العالم . . . . . محمد صالح الفلكي
تاريخ العالم . . . . . . مترجم
العلماء ثائرون . . . . . جمال الدين موسى
أساطين العالم الحديث . . . . المقتطف

دوريات

الهلال
المقتطف
أخبار اليوم
مجلة الدكتور
مجلة المصور
جريدة الاهرام

فهرس

مقدمة	٣
مركب النقص واثره في الحياة	٦
لاسقاط النفسي	١٨
العاطفة السائدة	٢٦
عقدة الاب	٣٨
الازاحة النفسية	٤٦
كنوز مطوية في البلاغة العربية	٥٤
التعاطف	٦٢
الفطام النفسي	٧٠
الكبت والصراع النفسي	٧٨
شياطين الشعراء	٩٢

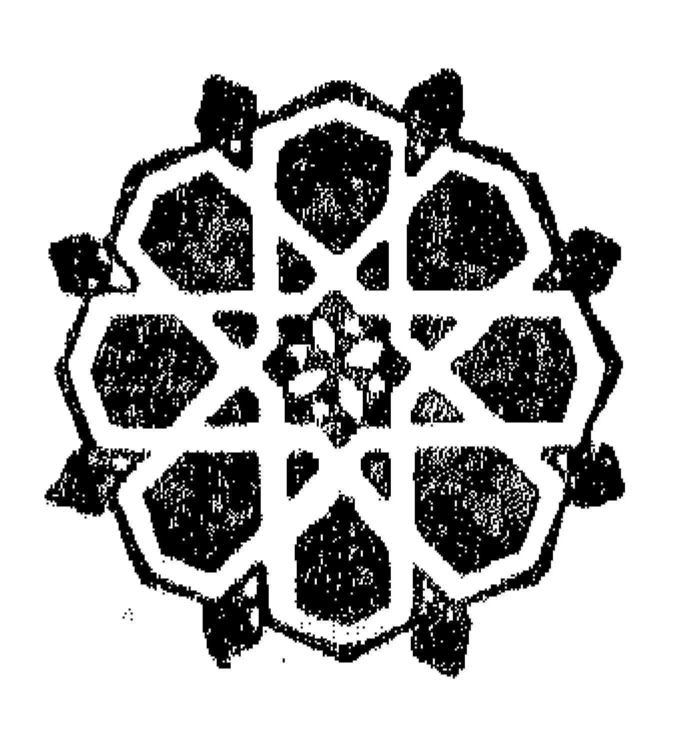
القرآن والعلم الحديث

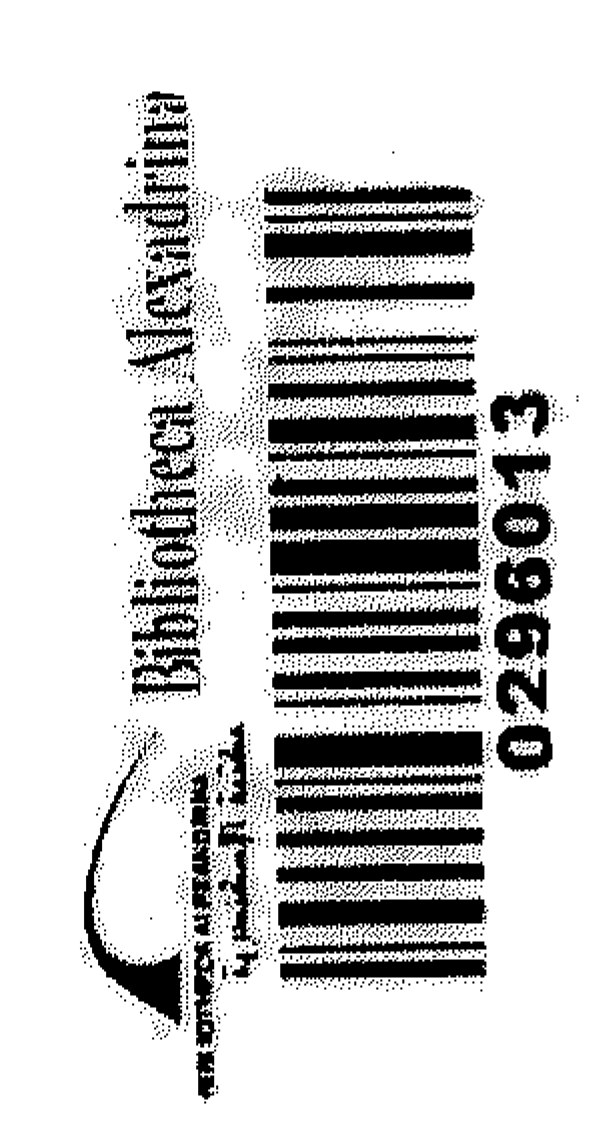
العلم يدعو الى الإيمان	١٠٦
الحكمة في تسوية البنان	١١٢

رأي في الحساب يوم القيامة ١١٨
القرآن ، والنظرية النسبية ١٢٤
موقف الكنيسة من نظرية دوران الارض ١٣٤
الامراء والعلم الحديث ١٤٢
غزو الفضاء ١٥٤
الشجر الأخضر ١٦٤
الطير الأبابيل وحرب الجراثيم ١٧٠
لعنة الله على اسرائيل ١٨١
مراجع الكتاب ٢٠٠



انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع
دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع
في ٢٨ ربيع الثاني ١٣٧٨
الموافق ١٠ تشرين الثاني ١٩٥٨





الثمن ٢٢٥ قرشاً لبنانياً او
٢٧٥ قرشاً ليبياً او ما يعادلها